جَوْلَة في
رياض العلماء
وَأحداث الحياة

تأليف

الدكتور عُمَر سُليمان الأشقَر

دار النفائس
للنشر والتوزيع - الأردن

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا
أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ
الَّتِي فِي الصُّدُورِ

تمهيد

إنَّ الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله ، أما بعد :

فهذا الكتاب جولة في رياض العلماء وأحداث الحياة ، ورياض العلماء هي الكتب التي سطرها العلماء ، والمقالات التي دبجوها ، وهي ـ عند أهلها ـ حقول فيحاء ، وبساتين غنَّاء ، أنهارها جارية ، وأطيارها مغردة ، وأشجارها خضراء وارفة الظلال ، يزينها أزهار ذات أريج وشذى ، وثمارها حلوة طيبة ، من سار في أرجائها ، وتجوَّل في أنحائها سرَّه مرآها ، فانشرح صدره ، وطاب خاطره .

وقد كنت في أثناء تطوافي في رياض العلم أقف عند مواطن تنبض بالعبرة والعظة ، وتبصر بالحقيقة وتكشف الزيغ ، وتهدي للتي هي أقوم ، فكنت أبادر باقتناصها كلما سنحت الفرصة ، خشية أن تضيع ويطويها النسيان .

وفي أحداث الحياة عبر ، ومن أحداث الحياة ما قد مضى ، وسطر العلماء منه في كتبهم ما سطروا ، ومنها ما يشاهده المرء أو يسمع به ، وإذا أحسن المسلم النظر في أحداث الحياة خلص بفوائد عظيمة ، وعظات بالغة .

أسأل الله تعالى أن ينفع بهذا الكتاب عباده ، وأن يجعله لي ذخراً في يوم لقياه ، إنَّه نِعمَ المولى ونِعم النصير .

د. عمر سليمان الأشقر

الكويت ، ١ من المحرم ١٤٠٢

٢٩ من اكتوبر ١٩٨١

عِبَرٌ وعظات

تقلب الدنيا بأهلها

الدار الآخرة هي الدار الباقية التي لا تنقضي مسراتها ، ولا يذوي شبابها ، ولا ينفذ رزقها ، أمّا الدنيا فإنَّ مسراتها يشوبها كدر ، ولذاتها منغصة ، بينا الإنسان في عزٍ ودعة وهناء ، إذا بالبؤس يهجم عليه ، وإذا بالشقاء يحلُّ بساحه ، فيصبح فقيراً بعد غنى ، ذليلاً بعد عز ، وقد يأتيه الموت الذي يأتي على الأحياء فيخرج من ملكه وسلطانه محمولاً على الأكتاف ، ثمَّ يوسد التراب ويترك لمصيره ، ولا يدوم إلاّ وجه ربّك ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴾ (١) ، الله هو الباقي الدائم ، يرفع أقواماً ويخفض آخرين ، يعطي الملك أقواماً وينزعه من أقوام ﴿ قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٢) .

قالت بعض بنات ملوك العرب الذين نكبوا : أصبحنا وما في الأرض أحد إلاّ وهو يحسدنا ويخشانا ، وأمسينا وما في العرب أحد إلاّ وهو يرحمنا .

ودخلت أم جعفر بن يحيى البرمكي على قوم في يوم عيد أضحى تطلب جلد كبش تلبسه ، وقالت : هجم عليَّ مثل هذا العيد ، وعلى رأسي أربعمائة وصيفة قائمة ، وأنا أزعم أنَّ جعفراً عاقٌّ لي .

---

(١) سورة الرحمن : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة آل عمران : ٢٦

وكانت أخت أحمد بن طولون صاحب مصر كثيرة السرف في إنفاق المال ، حتى إنها زوّجت بعض لعبها فأنفقت على وليمة عرسها مائة ألف دينار ، فما مضى إلاّ قليل حتى رئيت في سوق من أسواق بغداد وهي تسأل الناس .

واجتاز بعض الصالحين بدار فيها فرح وقائلة تقول :

ألا يا دار لا يدخلك حزن ولا يزري بصاحبك الزمان .

ثمّ اجتاز بها عن قريب ، وإذا الباب مسود ، وفي الدار بكاء وصريخ فسأل عنهم ، فقيل مات ربّ الدار ، فطرق الباب وقال : سمعت من هذه الدار قائلة تقول : كذا وكذا ، فبكت امرأة ، وقالت : يا عبدالله : إنّ الله يغير ولا يتغير ، والموت غاية كلّ مخلوق ، فانصرف من عندهم باكياً .

وبعث أبو بكر الصدّيق ـ رضي الله عنه ـ في خلافته وفداً إلى اليمن ، فجازوا في طريقهم بماء من مياه العرب عنده قصور مشيدة ، وهناك مواشٍ عظيمة ، ورقيق كثير ، ورأى نسوة كثيرة مجتمعات في عرس لهنّ وجارية بيدها دفّ تقول :

معشر الحسّاد موتوا كمدا كذا نكون ما بقينا أبدا

فنزلوا بقربهم ، فأكرمهم سيد الماء ، واعتذر إليهم باشتغاله بالعرس ، فدعوا له وارتحلوا ، ثمّ إنّ بعض أولئك الوفد أرسلهم معاوية إلى اليمن ، فمروا بالقرب من ذلك الماء ، فعدلوا إليه لينزلوا فيه ، فإذا القصور المشيدة قد خربت كلها ، وليس هناك ماء ، ولا أنيس ، ولم يبقَ من تلك الآثار إلاّ تل خراب ، فذهبوا إليه فإذا عجوز عمياء ، تأوي إلى نقب في ذلك التلّ ، فسألوها عن أهل ذلك الماء ، فقالت : هلكوا كلّهم ، فسألوها عن ذلك العرس المتقدم ، فقالت : كانت العروس أختي ، وأنا كنت صاحبة الدفّ ، فطلبوا أن يحملوها معهم ، فأبت ، وقالت : عزيز عليّ أن أفارق هذه العظام البالية حتى أصير إلى ما صارت

إليه ، فبينما هي تحدثهم إذ مالت ، فنزعت نزعاً يسيراً ، ثمَّ ماتت ، فدفنوها ، وانطلقوا [1] .

هذه بعض الأمثلة ، وحيثما التفت في كلّ جيل وعصر رأيت من ذلك أحداثاً وعبراً تحكي حال الدنيا وكيف تتقلب بأهلها .

قال ابن رجب يصف الدنيا : « ما عيبت الدنيا بأكثر من ذكر فنائها ، وتقلب أحوالها ، وهو أدلّ دليل على انقضائها وزوالها ، فتتبدّل صحتها بالسقم ، ووجودها بالعدم ، وشبيبتها بالهرم ، ونعيمها بالبؤس ، وحياتها بالموت ، فتفارق الأجسام النفوس ، وعمارتها بالخراب ، واجتماعها بفرقة الأحباب ، وكل ما فوق التراب تراب » [2] .

وقال في وصف الدار الآخرة [3] : « دار لا يموت سكانها ، ولا يخرب بنيانها ، ولا يهرم شبابها ، ولا يتغير حسنها وإحسانها ، هواؤها النسيم ، وماؤها التسنيم ، يتقلب أهلها في رحمة أرحم الراحمين ، ويتمتعون بالنظر إلى وجهه كل حين ﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ » [4] .

---

(١) لطائف المعارف لابن رجب ص ٢٧ .
(٢) المصدر السابق ص ٢٦
(٣) المصدر السابق ص ٢٨
(٤) سورة يونس : ١٠

لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم

ذكر ابن قتيبة في كتابه مختلف الحديث أنّ المنصور الخليفة العباسي سمر ذات ليلة ، فذكر خلفاء بني أميّة وسيرتهم ، وأنهم لم يزالوا على استقامة ، حتى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكان همهم من عظيم شأن الملك وجلالة قدره قصد الشهوات ، وإيثار اللذات ، والدخول في معاصي الله ومساخطه ، جهلاً منهم باستدراج الله تعالى ، وأمناً من مكره تعالى ، فسلبهم الله ـ تعالى ـ الملك والعز ، ونقل عنهم النعمة .

فقال له صالح بن علي : يا أمير المؤمنين ، إنّ عبيد الله بن مروان لما دخل النوبة هارباً فيمن اتبعه ، سأل ملك النوبة عنهم فأخبر ، فركب إلى عبيد الله ، فكلمه بكلام عجيب في هذا النحو لا أحفظه ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس بحضرتنا في هذه الليلة ، ويسأله عن ذلك ، فأمر المنصور بإحضاره ، وسأله عن القصة ، فقال : يا أمير المؤمنين ، قدمت أرض النوبة بأثاث سلم لي ، فافترشته بها ، وأقمت ثلاثاً ، فأتاني ملك النوبة وقد خبر أمرنا ، فدخل عليّ رجل طوال ، أقنى ، حسن الوجه ، فقعد على الأرض ، ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما يمنعك أن تقعد على ثيابنا ؟

فقال : إني ملك ! وحقٌّ لكل ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله .

ثمّ قال : لمَ تشربون الخمر وهي محرمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

قال : فلم تطؤون الزرع بدوابكم ، والفساد محرّم عليكم ؟ قلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم .

قال : فلمَ تلبسون الديباج والذهب والحرير ، وهو محرّم عليكم في كتابكم ؟

قلت : ذهب منا الملك ، وانتصرنا بقوم من العجم دخلوا في ديننا ، فلبسوا ذلك على كره منّا .

فأطرق ينكث بيده في الأرض ويقول : عبيدنا ، وأتباعنا ، وأعاجم دخلوا في ديننا ، ثمّ رفع رأسه إليّ ، وقال : ليس كما ذكرت . بل أنتم قوم استحللتم ما حرّم الله عليكم ، وأتيتم ما عنه نهيتم ، وظلمتم فيما ملكتم ، فسلبكم الله العزّ ، وألبسكم الذلّ بذنوبكم ، ولله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ، وأنا خائف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فينالني معكم ، وإنما الضيافة ثلاث ، فتزود ما احتجت إليه ، وارتحل عن أرضي[1] .

لقد أدرك هذا النوبي الأسباب الحقيقية التي أطاحت بملك بني أميّة ، إنْ أهم الأسباب الظلم : ظلم النفوس بالذنوب والمعاصي ، وظلم العباد بعدم انفاذ حكم الله على وجهه الحق .

---

(١) وقد ذكر القصة ابن خلدون في كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر ١/ ٣٦٧

قبر كثيراً ممن حفروا له قبره

عجوز جاوز التسعين من عمره ، كان جندياً في جيش الخلافة العثمانية ، أتمّ تدريبه هناك في تركيا قبيل الحرب العالمية الأولى ، أصيب بداء أضعف قواه ، ونحل له جسمه ، فقرر الأطباء أن لا أمل في شفائه ، فأدخل إلى حجرة الميؤ وس من شفائهم ، الذين يقضون لحظاتهم الأخيرة ، وكانوا يسمونها غرفة عزرائيل ، وأفاق ذلك الرجل من إغماءته ونظر حوله ، فإذا به يرى أناساً يلفظون أنفاسهم ، وآخرون قد لفظوها ، فقام من مكانه وتحامل على نفسه ، وفتح باب الغرفة ، ودب حتى وصل حنفية ماء ، فتحها فوق رأسه ، وجاء الذين كانوا يقومون على علاجه ، فذهلوا ، مَنْ هذا ؟! أهو ذلك الذي يئسنا من حياته ، ولم تمض أيام حتى تماثل للشفاء ، وعاد إلى ميدان القتال ، وانتهت الحرب العالمية الأولى ، وجاءت الحرب الثانية ، وسقطت دول وقامت دول ، والرجل الذي يئس الأطباء من شفائه ، حي يرزق ، تزوج ، وجاءه بنين وبنات ، وعمِّر وثمَّر .

ورجل آخر حفر له أهله القبر ، لأنهم رأوه في النزع الأخير ، وظنوا أنه مفارق بين ساعة وأخرى ، ولكنّ الرجل طال رقاده ، ودفن في القبر غيره ، وقام من مرضه ، وتزوج وأنجب ، وسار في جنازة كثير من الذين حفروا له قبراً ليدفنوه إذ ظنوا أن ساعته قد دنت ، وعندما كان يذهب إلى القبور ، كان ينظر إلى ذلك القبر الذي حفر له ، فصار لغيره .

وهذا مريض يتوجه إلى ربّه وخالقه ، يا ربّ ليس من رجاء إلا فيك ،

ويطلب من الطبيب أن يرفع عنه هذه الخراطيم التي تمده بالغذاء ، وتأخذ عنه ما يخرج منه ، ويستجيب الطبيب ، فقد يئس من الشفاء ، ولم يبق إلاَّ ساعات ويفارق الحياة ، وكم كان عجب الطبيب عندما رأى مريضه في الغد يتماثل للشفاء ، وبقي الطبيب يزور مريضه العجوز لينظر إلى آية من آيات الله .

صدق الله ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [١] ، كتاب كتبه الله سبحانه ، لا يأتي قبل وقته ، ولن يجاوز الأجل حدَّه ، ﴿ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ [٢] .

---

(١) سورة الرعد : ٣٨

(٢) سورة الأعراف : ٣٤

المنبوذ

روى البخاري في صحيحه عن عبد العزيز بن صهيب ، عن أنس قال : كان رجل نصراني ، فأسلم وقرأ البقرة وآل عمران . وكان يكتب للنبيﷺ ، فعاد نَصْرانياً ، فكان يقول : لا يدري محمدٌ إلاَّ ما كتبتُ له ، فأماته الله ، فدفنوه ، فأصبح وقد لفَظَتْه الأرض ، فقالوا : هذا فِعْلُ محمدٍ وأصحابه ، نَبَشُوا عن صاحبنا فألقوه ، فحفروا في الأرض ما استطاعوا ، فأصبح قد لفظته ، فعلموا أنه ليس من الناس ، فألقوه .

ورواه مسلم من حديث سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس قال : كان منا رجل من بني النَّجَّار قد قرأ البقَرَةَ وآل عِمْرَان ، وكان يكتب للنبيﷺ ، فانطلق هارباً حتى لحق بأهل الكتاب ، قال: فرفعوه ، قالوا : هذا كان يكتب لمحمد ، فأعجبوا به ، فما لبث أن قَصَمَ الله عنقه ، فحفروا له فَوَارَوْهُ ، فأصبحت الأرضُ قد نَبَذَتْهُ على وجهها ، ثم عادوا فحفروا له فوارَوْهُ فأصبحت الأرض قدنَبَذَتْـهُ على وجهها ، فتركوه مَنْبُوذا .

قال ابن تيمية ـ رحمه الله تعالى ـ معلقاً على هذا الحديث :

« فهذا الملعون الذي افترى على النبيﷺ أنه ما كان يدري إلاَّ ما كَتَبَ لَه ، قصمه الله وفضحه بأنْ أخرجه من القبر بعد أن دُفِن مراراً وهذا أمر خارج عن العادة ، يدل كلَّ أحدٍ على أن هذا كان عقوبة لما قاله وأنه كان كاذباً ، إذ كان عامةُ الموتى لا يصيبهم مثلُ هذا ، وأن هذا الجرم أعظم من مجرّد الارتداد ؛ إذ كان

عامة المرتدّين يموتون ولا يصيبهم مثل هذا وأن الله منتقمٌ لرسوله ممن طَعَنَ عليه وسبَّه ، ومُظْهرٌ لدينه ولكذب الكاذب ؛ إذ لم يمكن الناس أن يُقيموا عليه الحد .

ونظير هذا ما حدَّثَنَاه أعدادٌ من المسلمين العدولِ أهل الفقه والخبرة عما جَرَّبوه مراتٍ متعددة في حصر الحصون والمدائن التي بالسواحل الشامية ، لما حصر المسلمون فيها بني الأصفر في زماننا ، قالوا : كنا نحن نحصر الحصن أو المدينة الشهرَ أو أكثر من الشهر وهو ممتنع علينا حتى نكاد نيأس إذ تعرض أهله لسبِّ رسول الله ﷺ والوقيعة في عِرْضِه ، فعجلنا فتحه وتيسر ولم يكد يتأخر إلاَّ يوما أو يومين أو نحو ذلك ، ثم يفتح المكان عَنْوَة ، ويكون فيهم مَلْحَمة عظيمة ، قالوا : حتى إنْ كنا لَنَتَبَاشر بتعجيل الفتح إذا سمعناهم يَقَعُونَ فيه مع امتلاء القلوب غيظاً عليهم بما قالوه فيه .

وهكذا حدثني بعض أصحابنا الثقات أن المسلمين من أهل الغرب حالهُم مع النصارى كذلك ، ومن سنَّةُ الله أن يعذب أعداءَه تارةً بعذاب من عنده ، وتارة بأيدي عباده المؤمنين .

وكذلك لما تمكن النبيُّ ﷺ من ابن أبي سرّح أهْدَرَ دمه ، لما طعن في النبوة وافترى عليه الكذب ، مع أنه قد آمن جميعَ أهلِ مكة الذين قاتلوه وحاربوه أشدَّ المحاربة ، ومع أن السنَّة في المرتدُ أنه لا يُقْتَل حتى يُسْتَتَاب إما وجوباً أو استحباباً » (١) .

---

(١) انظر الصارم المسلول لابن تيمية ص ١١٦

فأين دعّار طيء

كان العرب أوزاعاً في الجزيرة العربية ، السعيد فيهم ذلك الإنسان الذي يجد لقمة يسدُّ بها رمقه ، وشربة رويّة تذهب عطشه ، ويكون ذا ساعد مفتول يردُّ عدوان المعتدين ، وينجده عندما يغير على القبائل ليسلب وينهب ، وما كان يدور بخلد العرب يوماً أن تتحول الجزيرة العربية من ساحة غارات وصراع وعراك إلى ميدان فسيح آمن ، وما كان يدور بخلدهم أنهم سيهاجون الأسود في عرينها : كسرى وقيصر ، وما كان يدور بخلدهم أن المال سيفيض والدنيا ستقبل عليهم ، وتفتح عليهم كنوز الأرض ، ولذلك فقد كانوا دهشين والرسول ﷺ يحدثهم بهذا قبل أن يكون ، هذا عدي بن حاتم الطائي [1] يجلس عند رسول الله ﷺ فيأتي رجل إلى الرسول ﷺ يشكو الفاقة والفقر ، ويأتي آخر فيشكو إليه قطع الطريق ، فيقول الرسول ﷺ لعدي :

« يا عدي » هل رأيت الحيرة ؟ » قال عدي : لم أرها ، وقد أنبئت عنها ، قال : إن طالت بك حياة لترين الظعينة ترحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة ، لا تخاف أحداً إلاَّ الله تعالى » .

ويعجب عديٌّ في نفسه كثيراً ، ويقول لنفسه : « فأين دعّار طيِّءٍ الذين سعّروا في البلاد ؟ » كيف يحدث مثل ذلك ، وكيف ستنجو المرأة التي تخترق الجزيرة من لصوص طيء .

---

(١) هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه .

ويزداد عجبه والرسول ﷺ يقول له : « ولئن طالت بك حياة لتفتحنَّ كنوز كسرى » .

ويتساءل متعجباً : « كسرى بن هرمز » !!

قال : « كسرى بن هرمز » .

ثمَّ يقول له : « ولئن طالت بك حياة لترينَّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله ، فلا يجد أحداً يقبله منه ، وليلقينَّ الله أحدكم يوم يلقاه وليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان يترجم له ، فليقولنَّ : ألم أبعث إليك رسولاً ، فيبلغك ؟ فيقول : بلى ، فينظر عن يمينه ، فلا يرى إلا جهنّم ، وينظر عن شماله فلا يرى إلاَّ جهنّم » . قال عديّ : فسمعت الرسول ﷺ يقول : « اتّقوا النار ولو بشقِّ تمرة ، فمن لم يجد بشقّ تمرة فكلمة طيبة » .

وقد تحقق في حياة عدي أمران مما أخبر الرسول ﷺ بحدوثه ، يقول عدي : « فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلاَّ الله ، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز » .

وتحقق الأمر الثالث فيما بعد ، فقد كان الغني يبحث عن فقير يقبل منه صدقته ذهباً أو فضة فلا يجد .

وسيتحقق الأمر الرابع ولكننا لن نراه إلا بعد البعث والنشور .

ميراث صلاح الدين الأيوبي

ذكر ابن كثير في البداية والنهاية (١٣/ ٤) أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن أيوب ـ لم يترك في خزائنه عندما توفي سوى جرم واحد ـ أي دينار واحد ـ صوريا وستة وثلاثين درهماً ، وقال بعضهم : سبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك داراً ولا عقاراً ولا مزرعة ولا بستاناً ، ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، وقد كان له ـ رحمه الله تعالى ـ سبعة عشر ولداً وابنة واحدة .

صلاح الدين هذا قاهر الصليبيين ، الملك العادل ، والقائد الفذ ، دانت له الأقطار الاسلامية : مصر ، الشام ، واليمن . . . لم يشتغل بجمع الأموال وتكديسها ، بل أنفق هذه الأموال في إعداد العدة التي أمر الله المسلمين بها ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾ [1] ، جيش الجيوش وأعدها ، وأنفق في مصالح المسلمين ، يقول ابن كثير : « وإنما لم يخلّف أموالاً ولا أملاكاً لجوده وكرمه وإحسانه إلى أمرائه وغيرهم ، حتى إلى أعدائه » [2] .

وقد يظن به أنه كان مبذراً مسرفاً ، وهذا غير صحيح « فقد كان متقللاً في ملبسه ، ومأكله ومركبه ، وكان لا يلبس إلاّ القطن والكتان والصوف » [3] .

لم يترك صلاح الدين الأيوبي مالاً كثيراً ، ولكنه ترك ذكرى عطرة ، وسيرة

(١) سورة الأنفال : ٦٠

(٢) البداية والنهاية : ١٣/٥

(٣) المصدر السابق .

حميدة ، ترويها الأجيال السابقة للأجيال اللاحقة .

وهذا دأب الصالحين من الأنبياء والمرسلين ومن اتبعهم بإحسان الى يوم الدين .

لقد توفي رسول الله ﷺ ودرعه مرهونة عند يهودي في أصواع من شعير أخذها بقيت بها أهله ، وإذا تتبعت سير الصالحين رأيت أن ميراثهم من نوع فريد ، ميراث أبقى من المال ، وأنفع للذرية مما يورثه الأغنياء .

لا ينجي حذر من قدر

في إحدى المعارك أصيب ضابط برصاصة في رأسه ، ومرت الرصاصة عبر رقبته لتستقرّ في معدته ، وبقي مع ذلك حياً ، وقرأنا ـ أكثر من مرة ـ عن طائرات سقطت أثناء طيرانها وتحطمت ، وبقي بعض ركابها أحياء ، وفي بعض الأحيان يسقط إنسان من الأدوار المرتفعة على أرض صلبة ثمّ يقوم يمشي ليس به بأس ، ويحدثك الناس عن شخص سقط عن كرسيه فمات ، ويحدثونك عن شخص رماه آخر بحجر صغير فكان في ذلك حتفه .

إن هذا يدلنا على أن لكلّ إنسان أجلا ، والإنسان لا يموت قبل انتهاء أجله ، ولا يؤخر ساعة بعد انتهاء الأجل ، والله سبحانه جعل للآجال أسباباً ، فعثرة صغيرة قد تفضي الى الموت ، لأنّ الله قدّر انتهاء الأجل بهذا السبب ، وصخرة كبيرة يرمى بها الإنسان وتصيبه ويبقى حياً ، وصدق الله إذ يقول : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَـٰبًا مُّؤَجَّلًا ﴾ (١) .

ولقد فقه المؤمنون الصادقون هذه الحقيقة فوهبتهم الشجاعة والإقدام ، في ميدان الحرب والقتال ، وفي مواجهة الظالمين ومقارعتهم ، وفي تسديد الذين يحيدون عن الصراط المستقيم .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤٥

وجهل آخرون هذه الحقيقة فعاشوا في رعب دائم ، وذلّ دائم ، ولم ينجهم رعبهم ومذلتهم من الموت ، فالجبان يموت كما يموت الشجاع ، وفي كثير من الأحيان يصرع الجبان الفرار ، وينجو الشجاع المقدام ، وما أصدق مقالة الصديق : اطلب الموت توهب لك الحياة .

السجن خير له من كرسي الحكم

كثير من المصائب تتكشف عن نِعم لم يكن المصاب يعلم بها ، بعض الناس يصاب في ماله أو ولده لخير يريده الله ، وقد يكون هذا الخير آجلاً ، وقد يكون عاجلاً ، تذكرت هذا وأنا أقرأ شيئاً عن حاكم الجزائر أحمد بن بيللا الذي أطيح به عن كرسي الحكم وأودع السجن سنوات طويلة ، فكان السجن خيراً له من كرسي الحكم ، فلو بقي في الحكم لفعل ما يفعل غيره من ظلم وعدوان ، ولتحمل إثم دماء كثيرة تسفك ، وأموال تسلب ، ولأوقف يوم القيامة ليسأله الله عمن كانوا تحت حكمه ، لقد أودع السجن وكان سميره وأنيسه في سجنه كتاب الله تعالى ، فوجد فيه نفسه ،وقوَّم فكره ، وهذب خلقه ، ورأى الدنيا صغيرة بعد أن كانت كبيرة في عينيه ، استمع إليه وهو يتحدث عن فترة اعتقاله الأولى[1] :

« كل ما كان لدي هو المصحف الشريف . وكان بالفعل نِعمَ الرفيق ، سكنت إليه فأنزل على قلبي وأعصابي وعقلي برداً وسلاماً » .

« أغرقت نفسي في آياته . كانت لغتي العربية وقتذاك ضعيفة ولا تسعفني ، لكني واصلت من دون كلل ، وشيئاً فشيئاً ، فتح اللّه ـ عز وجل ـ لي الأبواب المغلقة ، ودخلت في رحاب الطهر والحكمة الإلهية ، وانفتحت أمامي عوالم السموات والأرض أنهل منها بغير حساب » .

(١) مجلة الوطن العربي العدد ١٤١ .

« وأمدني القرآن بقوة داخلية غير عادية لم يسبق أن أحسست بها من قبل : قوة عقلية ونفسية وحتى بدنية . وكلما أوغلت في القراءة وكررتها تعرفت على أشياء جديدة . وانكشف لي العديد من مغاليق أسرار الكون والحياة .

وإذا بنظرتي إلى نفسي والناس والحياة تصبح أكثر رحابة وصفاء . متطهرة من كل حقد ، أو رغبة في انتقام صغير أو كبير . . . ألمس جيداً ما وقعت فيه من أخطاء ، وأغفر من القلب أخطاء الآخرين في حقي . وأعيد النظر بقدرات عقلية ومعنوية أكثر عمقاً في كل ما تقدم وتأخر من حياتي وذنوبي وذنوب الآخرين ، لأصل الى درجة حقيقية ومخلصة على ما أعتقد في نقد الذات ونقد التجربة ونقد الآخرين ، بمحبة وسعة صدر .

ومَنَّ الله عليَّ بحفظ القرآن الكريم بجميع أجزائه . وإذا بلساني العربي يصير فصيحاً .

من باب القرآن الكريم دخلت إلى السنَّة وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ، ثم الى كتب الفقه باتجاهاتها المختلفة ، ثم إلى أمهات المراجع الإسلامية » .

نرجو أن يصاحب هذا الأثر الطيّب ابن بيللا بعد خروجه من السجن ، ولا يضيع الخير الذي حصله في مدرسة السجن .

نسيت أن تتزوج

نشرت صحيفة الأهرام المصرية[1] تحت عنوان : « أستاذة جامعية تنصح طالباتها بالزواج » . قالت : أستاذة جامعية في انجلترا وقفت هذا الأسبوع أمام مئات من طلبتها وطالباتها تلقي خطبة الوداع بمناسبة استقالتها من التدريس .

قالت الأستاذة :

ها أنا قد بلغت الستين من عمري ، وصلت فيها إلى أعلى المراكز ، نجحت وتقدمت في كلّ سنة من سنوات عمري ، وحققت عملاً كبيراً في المجتمع ، كلُّ دقيقة في يومي كانت تأتي عليَّ بالربح ، حصلت على شهرة كبيرة ، وعلى مال كثير ، أتيحت لي الفرصة أن أزور العالم كلّه ، ولكن ، هل أنا سعيدة الآن بعد أن حققت كلّ هذه الانتصارات ؟!

لقد نسيت في غمرة انشغالي في التدريس والتعليم ، والسفر والشهرة ، أن أفعل ما هو أهمُّ من ذلك كلّه بالنسبة للمرأة . . .

نسيت أن أتزوج ، وأن أنجب أطفالاً ، وأن أستقر .

إنني لم أتذكر ذلك إلاَّ عندما جئت لأقدم استقالتي ، شعرت في هذه اللحظة أنني لم أفعل شيئاً في حياتي ، وأنَّ كلَّ الجهد الذى بذلته طوال هذه

(١) العدد الصادر في ٢٩/ ٥/ ١٩٦١ (كتاب اسلامنا لسيد سابق ص ٢١٠) .

السنوات قد ضاع هباءً ، سوف أستقيل ، وسيمرُّ عام أو اثنان على استقالتي ، وبعدها ينساني الجميع في غمرة انشغالهم بالحياة . ولكن لو كنت تزوجت ، وكونت أسرة كبيرة ، لتركت أثراً كبيراً وأحسن في الحياة .

إن وظيفة المرأة هي أن تتزوج ، وتكوّن أسرة ، وأيُّ مجهود تبذله غير ذلك لا قيمة له في حياتها بالذات ، إنني أنصح كلَّ طالبة أن تضع هذه المهام أولاً في اعتبارها ، وبعدها تفكر في العمل والشهرة » .

إن هؤلاء المساكين يضيعون أعمارهم ولا يدركون الحقيقة إلاَّ في غروب العمر ، والعجب من فتيات الإسلام اللواتي يتابعن هؤلاء في التيه على غير هدى وقد دلّنا الله على الطريق ، وبينَّ لنا السبيل ، والسعيد من وعظ بغيره ، فإلى أين يا ابنة الإسلام ؟!

قيم إسلامية

زهرة الدنيا بين التنافس فيها والإعراض عنها

سمع الأنصار أنَّ أبا عبيدة بن الجراح قدِمَ من البحرين بمال كان قد صالحهم عليه الرسولﷺ ، فوافوا الرسولﷺ في صلاة الصبح ، فلما انصرف من الصلاة تعرضوا له ، وفهمَ الرسولﷺ مرادهم ومطلبهم فتبسم ، وقال : « أظنكم سمعتم بقدوم أبي عبيدة ، وأنه جاء بشيء ؟ قالوا : أجل يا رسول الله ، قال : أبشروا ، وأمِّلوا ما يسركم ، فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم ، فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم »[١] .

لم يؤنبهم الرسولﷺ ، ولم يوبخهم عندما جاؤوا طالبين المال ، فالرسولﷺ يعلم أنَّ لهم في هذا المال حقاً ، ويعلم حاجتهم إليه ، والمال من الزينة التي حببها الله إلى عباده ، ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٢] ، وهو من الشهوات المركوزحبها في أعماق النفس الإنسانية ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾[٣] .

صحيح ان التنافس في متاع الدنيا ، والإغراق في طلبه ، بوجع القلوب ، ويدمي النفوس ، ويأتي بالعداوة والشحناء ، ولكن ليس السبيل أن نمنع الناس مما

(١) رواه البخاري في صحيحه .
(٢) سورة الكهف : ٤٦ .
(٣) سورة ال عمران : ١٤

زين وأبيح لهم ، فإن ذلك لن يحلَّ المعضلة ، ولذلك اكتفى الرسولﷺ بالتنبيه والتحذير مع بذل المال لهم ، حذرهم الرسولﷺ من الآثار المترتبة على الانشغال بجمع المال ، والتوسع في تحصيله ، فهو يخاف على أصحابه وأمته من بعده مصيراً كمصير الذين فعلوا هذا من قبل ، فأسنت نفوسهم بالترف والنعيم ، وانشغلوا بدنياهم عن آخرتهم ، وألهاهم المال عن المكرمات ، وهابوا الجهاد حرصاً على الحياة الدنيا فألقوا بأيديهم الى التهلكة ، وهذه النتائج تؤدي الى آثار خطيرة في حياة الفرد وحياة الأمة ، تجعل الفقر أسلم عاقبة ، وآمن نتيجة من أن يفتح على الناس أبواب كل شيء فيَفْسُدوا ويُفْسِدوا « ما الفقر أخشى عليكم . ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا ، كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها ، وتلهيكم كما ألهتهم ».

لقد ضلَّ هنا فريقان : فريق رأى أن هذا الذي أباحه الله لعباده من زهرة الدنيا شرٌ في ذاته يجب أن يتخلص منه الإنسان بالفرار إلى البراري والقفار والتعبد في الفلوات وفي الزوايا والتكايا ، ويرون ألا يشغل المرء نفسه في مثل هذه الأمور ليتجنب الأضرار الناتجة عن الانشغال بالمال .

وفريق غرق في جمع المال والتمتع به حتى ألهاه عن كل شيء .

ولقد سأل أحد الصحابة الرسولﷺ عندما خطب الرسولﷺ وقال :

« إن مما أخاف عليكم بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها » ، فقال السائل :

« يا رسول الله ، أوَيأتي الخير بالشر ؟ » لقد كان هذا السؤال ممثلاً للمشكلة التي عانى منها الناس في القديم والحديث ، سؤال يطلب حلاً لمشكلة لم يستطع حلّها الرهبان والعباد والمتصوفة بل ولا كثير من العلماء . المال خير أباحه الله لعباده فهل يأتي الخير بالشر ؟ وهل النصوص التي جاءت محذرة من الدنيا ، وهذا التخوف الذي خافه الرسولﷺ على أمته يقضي بأن يترك الناس ذلك كله ويبتعدوا

عنه ؟ لقد كان الجواب يحتاج الى وحي من السماء ، وأخذت الرسول ﷺ الرحضاء [1] » فمسحه ﷺ عن نفسه ، وقال : « أين السائل » ؟ ثمّ قال : « إنه لا يأتي الخير بالشر » .

إنه جواب فيصل في الموضوع ، الخير لا يأتي بالشرّ ، وضرب لذلك ﷺ مثلاً ، فالينبوع المتدفق ينبت النبات مما يأكل الدواب والأنعام ، والماء خير وما ينبته الماء خير آخر ، ولكن الطريقة التي يتناول بها الدواب والأنعام هذا النبات هي التي قد تؤذي وتضر ، فمن آكله العشب من تأكل طيِّبه ، فإذا امتلأ بطنها توقفت عن الأكل ، واجترت ما أكلته ، وصرفته ، ثم عادت فرتعت ، ومن الدواب من ترى العشب فيسيل له لعابها ، ثمّ تنقضّ عليه تأكل وتأكل وتأكل بلا توقف ، حتى يمتلىء بطنها وينتفخ فتهلك ، وكذلك أرباب المال منهم من يأخذ منه ، ولكنه ينتفع به وينفع به عباد الله ، فيتصدق منه على الفقير والمسكين ، ويعطي حق المال ، أمّا الذي يشغل عليه وقته ويكون همّه تكديس المال وجمعه غير مبالٍ بأحد فهذا كالحيوان الذي يتناول من العشب أكثر مما يطيق حتى يقتله طعامه ، يقول الرسول ﷺ : « إنّه لا يأتي الخير بالشرّ ، وإن مما ينبت الربيع [2] يقتل أو يلم [3] ، إلا آكلة الخضراء ، أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها ، استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت » فهذه هي التي تنتفع بما تأكل .

ثمّ يقول : « وإن هذا المال حلوة خضرة ، فنعم صاحب المال المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ، وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع ،ويكون شهيداً عليه يوم القيامة » [4] .

---

(١) الرحضاء : عرق كثير كان يصيب الرسول ﷺ عندما يأتيه الوحي .

(٢) الربيع : الينبوع أو الجدول المتفق .

(٣) يقتل او يلم : أي بعض ما ينبته ضار يقتل آكله . أو يمرضه . وهو مثال ضربه ﷺ لمن يجمع المال الطيِّب والخبيث .

(٤) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأحمد .

الكلأ أهون عليَّ من الذهب

كانت تعاليم الإسلام وآدابه تتمثل في الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في جميع تصرفاته وأعماله وتوجيهاته ، وكان همّه الأعظم القيام بأمر الله كما جاء به رسول الله ﷺ ، ورعاية مصالح المسلمين . روى مالك في موطئه [1] في كتاب دعوة المظلوم ، قال : حدثني زيد بن أسلم عن أبيه أنّ عمر بن الخطاب استعمل مَوْلى له يُدْعى هنيًا على الحمى [2] .

فقال : يا هنيُّ : اضمم جناحك عن النّاس [3] ، واتقّ دعوة المظلوم ، فإنّ دعوة المظلوم مستجابة ، وأدخل ربّ الصريمة [4] ، وربّ الغنيمة ، وإياي ونعم ابن عوف ، ونعم ابن عفان ، فإنهما إن تهلك ماشيتهما يرجعا إلى نخل وزرع . وإن ربّ الصرُيمة وربُّ الغنيمة إن تهلك ماشيتهما يأتيني ببنيه ، فيقول : يا أمير المؤمنين ! أفتاركهم أنا لا أبالك ؟ فالماء والكلأ أهون وأيسر عليَّ من الذهب والورق . وأيم الله إنهّم ليرون أني قد ظلمتهم ، وإنهّا لبلادهم ومياههم ، قاتلوا عليها في الجاهلية ، وأسلموا عليها في الإسلام ، والذي نفسي بيده لولا المال الذي أحمل عليه في سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً .

---

(١) ورواه البخاري في صحيحه (٥٦) كتاب الجهاد (١٨٠) باب إذا أسلم قوم .

(٢) الحمى : الأرض التي يمنع الناس من الرعي فيها وتخصص لخيل وإبل المسلمين التي تحمل للجهاد والصدقة .

(٣) اضمم جناحك عنهم : اكفف يدك عن ظلمهم .

(٤) الصريمة والغنيمة : القطعة القليلة من الإبل والغنم .

رحم الله عمر ، لقد كان يوجه الجيوش في الشام والعراق ومصر ، ويوجه راعي إبل المسلمين وأغنامهم ، وكان حريصاً على العدل بعيداً عن الظلم ، يهتم بإبل المسلمين وأغنامهم كما يهتم بفقراء المسلمين ، لا يحابي غنياً ، ولا يداهن وجيهاً ، حريصاً على أن لا ينفق شيئاً من المال في غير مكانه .

ساد قومه وهو أحنف أعور

مرَّ معي في تراجم الرجال أنَّ الأحنف بن قيس ساد قومه مع أنّه كان أحنف أعور [1] ، وعطاء بن أبي رباح كان أسود أعور أفطس أشلّ أعرج ، ثمَّ عمي بعد ذلك ، وقد كثر ثناء العلماء عليه ، وذكر علمه وفضله وعبادته ، وكان عالم مكة وفقيهها، وكان ينادي منادي بني أميّة في أيام منى : لا يفتي الناس في الحج إلاَّ عطاء ابن أبي رباح ، وقال أبو جعفر الباقر ، ما رأيت فيمن لقيت أفقه منه ، وقال الأوزاعي : مات عطاء بن أبي رباح يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عندهم [2] .

هذان المثالان يظهران لك كيف سادت القيم في المجتمعات الإسلامية ، فكانت قيمة الإنسان تقاس بإيمانه وعلمه وعمله ، لقد كان الناس يرتفعون بهذا ويتفاضلون به ، وقد وعوا عن ربهّم قوله : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [3] وعن رسولهم ﷺ قوله : « إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم وأشكالكم ولكن ينظر الى قلوبكم وأعمالكم » .

لم يكن القبيح بضايقه قبحه ، فالجمال والقبح ليسا من فعل الإنسان ، والله

(١) الاصابة في تمييز الصحابة (١/ ١٠٠) .

(٢) البداية والنهاية لابن كثير (٩/ ٣٠٦) .

(٣) سورة الحجرات : ١٣

لا يحاسب الناس على شيء من ذلك ، إنما الشيء الذي من فعل الإنسان ويمكنه أن يرتفع به عند الله هو العمل .

لم يكن الرجل الذي خلقه الله أسود الشكل ممقوتاً عند الناس كما هو الحال في الدول التي تسمى راقية ، ولم يكن الناس بحاجة إلى عمليات التجميل لتغيير أشكالهم وإخفاء قبحهم ، فهناك مجالات يرتفع فيها الإنسان ويسود ، وعند ذلك يخطب وده أصحاب الجمال والمال . سأل رجل الأحنف بن قيس : بمَ سدت قومك وأنت أحنف أعور ؟ قال بتركي ما لا يعنيني ، كما عناك من أمري ما لا يعنيك .[1]

---

(١) الاصابة : (١٠١/١)

نجاة ابن سينا والنجاة الحقيقية

الوصول الى الحق والتعرّف إليه ليس بالأمر السهل ، بعض الناس يغرقون في بحار الباطل ولا يصلون الى الحق ؛ لأنَّ سبل الهداية لم تتيسر لهم ، وآخرون جاءتهم رسلهم بالبينات ولكنهم خاضوا لجج البحار ، وساروا في الفيافي ذات الدروب المتشابكة يطلبون الحق معتمدين على عقولهم ، فانقطعت الحبال ببعضهم ، ووفق الله من رحمه فنجا ، وعاد الى كتاب الله بعد أن أضناه المسير ، وضيع أوقاتاً طوالاً فيما لا فائدة فيه .

من هؤلاء الشهرستاني والغزالي ومن آخر من عرفت حاله ابن بدران الدمشقي صاحب كتاب المدخل إلى مذهب أحمد ، والمتوفى سنة ١٣٤٦ هـ .

يقول ابن بدران (١) واصفاً حاله في طلب العلم والهداية ، وكيف تعثر في طريقه وكاد يضلُّ إلى أن هداه الله إلى الحقّ والنور : « لما منَّ الله عليَّ بطلب العلم هجرت له الوطن والوسن (٢) ، وكنت أبكر فيه بكور الغراب ، وأطوف المعاهد لتحصيله ، وأذهب فيه كل مذهب ، وأتبع فيه كل شعب ، ولو كان عسراً ، أشرف على كل يفاع (٣) ، وأتأمل كل غور (٤) ، فتارة أطوح بنفسي فيما سلكه ابن سينا في الشفا والاشارات ، وتارة أتلقف ما سبكه أبو نصر الفارابي من صناعة المنطق وتلك العبارات ، وتارة أجول في مواقف المقاصد والمواقف ، وأحياناً أطلب

(١) انظر المدخل ص ٣
(٢) الوسن : النعاس .
(٣) اليفاع : ما ارتفع من الأرض .
(٤) الغور في كل شيء قعره . يقال : غار في الأمر إذا دقق فيه النظر .

الهداية ظناً مني أنها تهدي الى الرشد ، فأضمّ اليها ما سلكه ابن رشد ، ثمّ أردد في الطبيعي والإلهي نظراً ، وفي تشريح الأفلاك أتطلب خبراً أو خبراً ، ثمّ أتجول في ميادين العلوم مدة كعدد السبع البقرات العجاف » .

فماذا كانت النتيجة ؟ اسمعه يقول : « فارتدّ إليّ الطرف خاسئاً وهو حسير ، ولم أحصل من معرفة الله - جلّ جلاله - إلاّ على أوهام وخطرات وساوس ، وإشكال نشأ من البحث والتدقيق ، فأدفعه بما أقنع نفسي بنفسي » .

لقد هام في بيداء كتلك البيداء التي يصفها المتنبي :

يتلوّن الخرّيتُ من خوْفِ التّوى ... فيها كما تتلوّن الحرباء

وشاء الله أن ينقذه من ضلاله ، ويخلصه من الضياع : « ناداني منادي الهدى الحقيقي :هلمّ إلى الشرف والكمال ، ودع نجاة ابن سينا الموهومة ، الى النجاة الحقيقية » وأين وجد الهداية ؟! لقد وجدها في العقيدة والمنهج الذي كان عليه « السلف الكرام من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ،فإنّ الأمر ليس على ما تتوهم ، وحقيقة الربّ لا يمكن أن يدركها المربوب ، وما السلامة إلاّ بالتسليم ، وليس بعد الحق إلا الضلال ، هنالك هدأ روعي ، وجعلت عقيدتي كتاب الله ، أكل علم صفاته إليه بلا تجسيم ولا تأويل ولا تشبيه ولا تعطيل ، وانجلى ما كان على قلبي من رين أورثته قواعد أرسطوطاليس ، وقلت : ما كان إلا من النظر في تلك الوساوس والبدع والدسائس ، فمن أين لعباد الكواكب أن يرشدونا إلى الصراط المستقيم ، وما كانوا مهتدين .

ومن أين لأصحاب المقالات أن يعلموا حقيقة قيوم الأرض والسموات ، ولو كانت حقيقة صفات الله تعالى تدرك بالعقول لوصل أصحاب رسائل إخوان الصفا الى الصفا » .

لقد هدي ووفق « فمن ثمّ جعل شغله كتاب الله تدريساً وتفسيراً ، وسنّة رسول الله قراءة وشرحاً » .

رقابة الله هي الضمان ضد الطغيان

لا شك أن القارىء قد استوقفه انتشار الجريمة ، في هذا العالم المترامي الأطراف ، وقد هاله هوان النفوس ، وسفك الدماء ، وهتك الأعراض ، وسرقة الأموال ، وتدمير الممتلكات ، والرجل الصالح يعجب من الطاقات الهائلة التي تبذل في سبيل الإفساد ، ومن ذلك التنظيم الذي بلغه المجرمون في الدول الراقية المتحضرة ، ولعلّ أعظم الأسباب التي تدفع إلى الطغيان والفساد هو الخواء الروحي الذي أصاب النفوس ، فأصبحت خالية من المثل والقيم التي تزكي النفس ، وتذهب الهمّ .

في فرنسا مجموعات من الشباب يطلقون على أنفسهم : « فهود باريس » ، يرتدون معاطف جلدية سوداء ، وأحذية عالية الساق ، ويتزينون بشعارات نازية وصلبان حديدية تتدلى حول رقابهم ، ويتجولون فوق دراجات نارية ضخمة أو في سيارات أمريكية ، وهم يحملون قضباناً حديدية أو أي سلاح آخر بحثاً عن المتاعب . وهؤلاء يشتركون جميعاً في الاستهتار بكل القيم ، ولا يكترثون بمجتمع الطبقة الوسطى ولا بالقوانين ، وكسب المال ، والأحداث السياسية ، وكل ما يهمهم هو قضاء وقت ممتع ، والوقت الممتع هو الذي يقضونه في القتال وإرهاب الآمنين ، واحتساء البيرة ، وارتكاب الزنا ، والتسابق فوق دراجاتهم النارية ، وهم يرون أنفسهم ثواراً بلا قضية منعزلين خارج المجتمع ، وهم يقولون كما قال أحد نجوم السينما المشهورين : « نريد العيش حياة سريعة والموت صغاراً لنكون

جثثاً جيلة »[1] .

ونحن نعلن والتاريخ يصدقنا أن البشرية لن تجد نفسها إلاّ إذا عادت إلى ربها وسارت وفق منهجه ، عند ذلك تمتلىء هذه القلوب رضا ، إذا عرف العبد ربّه أصبح ذا هدف يسمو على المادة ، وعند ذلك يسخر حياته من أجل ذلك الهدف .

ومن ينظر الى الجريمة في تاريخ الأمة الإسلامية ، يعجب من انخفاض مستوى الجريمة في الفترات التي طبق فيها الإسلام وسادت روحه وتشريعاته ، ومن الحياة الآمنة التي كان يعيش فيها الناس .

اليوم تسنُّ القوانين في الدول على اختلاف نظمها وتعقد المؤتمرات ، ويجتمع العلماء هنا وهناك لمواجهة الجريمة ، ومع ذلك فإن القوانين لا تردع المجرمين ، بل تزداد الجريمة في كثير من الأحيان .

ولا شك ان التشريع الجنائي الذي سنّه الإسلام كان له اثر كبير في التقليل من الجريمة ، ولكن العامل الأول الذي حد منها إنما هو تلك العقيدة التي غرسها الإسلام في نفوس المسلمين .

وأعني بها اعتقاد المسلم بأن الله عليم به يراقبه وينظر إليه ويراه ، وأنه يسجل عليه أعماله وسيحاسبه على ذلك كله .

الإسلام يغرس في حسّ المسلم أن رقابة الله شاملة للكون كله ، وهي رقابة دائمة وهيمنة مستمرة ، وهذه الهيمنة وتلك الرقابة مبنية على علم الله الواسع المحيط بحيث لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء .

ونحن البشر من جملة هذه العوالم التي أحاط الله بها علماً في كل أمر من أمورنا وفي كل شأن من شؤوننا ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن

(١) جريدة الهدف ١٩٨١/١/٨

﴿ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ (١) .

وعلم الله محيط بفعل الانسان البادي الظاهر ، والخافي الذي يجول في منحنيات الصدور ، ويتردد في أعماق القلوب ، ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (٢) . ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ (٣) .

وليس ذلك فحسب ، فإن هذه الأعمال ، وتلك الخواطر والأفكار ، تسجل في كتاب ، ويقوم على التسجيل علماء لا يفوتهم شيء مما يعمل أو يقال : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾ (٤) .

وهذا الكتاب يحفظ كي يكون حجة على صاحبه في يوم العرض والنشور ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ (٥) .

ويذهل الإنسان في ذلك اليوم من دقة التسجيل وإحاطة كتابه المسجل بعمله وما وقع منه ﴿ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (٦) .

وفي ذلك اليوم تسفر وجوه الصالحين الذين ابيضت صحائفهم بصالح الأعمال ، وتسود وجوه الظالمين الذين قذرت صحائفهم بالأعمال الخبيثة ﴿ وُجُوهٌ

(١) سورة يونس / ٦١

(٢) سورة البقرة : ٧٧

(٣) سورة غافر : ١٩

(٤) سورة ق : ١٦ - ١٨

(٥) سورة الإسراء : ١٣ - ١٤

(٦) سورة الكهف : ٤٩

يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ ﴿٣٨﴾ ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ ﴿٣٩﴾ وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ ﴿٤٠﴾ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ ﴿٤١﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ ﴾ (١) .

وينادي أصحاب اليمين في الموقف معربين عن سرورهم وفرحهم ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . . . ﴾ (٢) .

وأما أصحاب الشمال فموقفهم مختلف ﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِيَهْ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴾ (٣) .

وتكون المفاجأة الكبرى في ذلك اليوم عندما تشهد على الإنسان أعضاؤه ، وما كان يتوقع ذلك ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ (٤) .

واستمع الى هذا الحوار العجيب الذي يدور بين الانسان الكافر وأعضائه حينما يرد النار ﴿ وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ (٥) .

إن الذي تغلغل في قلبه هذا الاعتقاد ، الاعتقاد بأن الله يراقبه ويسجل عليه اعماله ، الاعتقاد باليوم الآخر الذي تعرض فيه الأعمال ، وتشهد عليه أعضاؤه ـ ليهتز كيانه عندما يهم بالإفساد في الأرض ، وظلم الآخرين ، لأنه يعلم أنَّ العليم

(١) سورة عبس : ٣٨ ـ ٤٠
(٢) سورة الحاقة : ١٩ ـ ٢٣
(٣) سورة الحاقة : ٢٥ ـ ٣٢
(٤) سورة فصلت : ٢٢
(٥) سورة فصلت : ١٩ ـ ٢١

الحكيم مولاه وإلهه ينظر إليه ويراه ، والملائكة الكرام الكاتبين تشاهده ، وعند ذلك يخجل ويخاف ويتراجع عن غيه . وصاحب هذه العقيدة لا يتعالى في الأرض ولا يطغى ولا يبغي ﴿ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ ﴾ .(١)

وهذه العقيدة تدفع صاحبها لمحاربة الباطل غير هياب ولا وجل لأنه يصول ويجول بحول الله وقوته ، الذي يراه ويشاهده وينظر إليه .

وصاحب هذه العقيدة لا يقعده عن فعل الخير استتاره عن العيون ، لأنه يعمل لرب يعلم السر وأخفى ، ولا يضيع عنده مثقال حبة من خردل ﴿ يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ﴾ .(٢)

إن هذا الاعتقاد هو الذي يتسامى بصاحبه نحو الكمال في كل أمر من أموره وفي كل عمل من أعماله ، وتلك هي المرتبة العليا في ديننا وهي الإحسان ، وسبيلها كما أخبر الرسول ﷺ « أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

فإلى الذين يريدون أن يعيش الإنسان في هذه الأرض نظيف القلب ، سوي الخلق ، قويم العمل ، قاصداً الخير ، متجافياً عن الشر ، إلى هؤلاء نقول : عليكم بالإسلام الذي يغرس في العباد رقابة الله فتلقي ظلالاً هانئة على نفس صاحبها . وتبدو آثارها من حوله ، وفي كل شؤونه .

---

(١) سورة النجم : ٣٢

(٢) سورة لقمان : ١٦

في الدعوة

ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة

كثير من الذين يرفضون الإسلام ويحاربونه جاهلون به وبأهله ، وكثير من هؤلاء عندما تتهيأ لهم فرصة للتعرف على الإسلام يسارعون إليه عن رضا وطواعية . روى البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي أن الرسول ﷺ أرسل خيلاً قبل نجد ، فأسرت رجلاً من بني حنيفة يدعى ثمامة بن أثال ، وكان سيد أهل اليمامة ، وكان مبغضاً للإسلام وللرسول ﷺ ، فأمر الرسول ﷺ بربط الأسير في سارية من سواري المسجد ، وقد كان اختياراً حكيماً موفقاً ، فقد كان المسجد معبد المسلمين ومنداهم ، وبذلك يتيسر للأسير أن يطلع على هذا الدين من خلال تصرفات المسلمين وعبادتهم ومعاملتهم ، تركه الرسول ﷺ ثلاثة أيام مربوطاً في المسجد ، وفي كل يوم يسأله الرسول ﷺ قائلاً : ما عندك يا ثمامة ؟ وفي كل مرة يجيب قائلاً : عندي خير يا محمد ، إن تقتل تقتل ذادم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل تعط منه ما شئت .

لقد اقتنع ثمامة بالإسلام بعدما رأى وشاهد من المسلمين ورسول الإسلام ما شاهد . ولكنه أنف أن يدخل في الإسلام وهو أسير ، فيظنّ به أنه إنما أسلم رغبة في الانعتاق من ربقة الأسر ، وتخلصاً من الذلّ والمهانة ، ولعلّ الرسول ﷺ علم منه هذا ، فقال في اليوم الثالث بعد سؤاله له : أطلقوا ثمامة ، هكذا ، لا عقوبة ، ولا فدية ، فانطلق ثمامة إلى نخل قريب ، فاغتسل ، ثم عاد فدخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلاّ الله ، وأن محمداً رسول الله ، يا محمد ، والله ما كان على

وجه الأرض أبغض إليّ من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إليّ ، والله ما كان من دين أبغض إليّ من دينك ، فقد أصبح دينك أحبّ الدين كلّه إليّ ، والله ما كان من بلد أبغض إليّ من بلدك ، فقد أصبح أحبّ البلاد كلها إليّ ، وقد تمكّن الإسلام في نفسه ورسخ ، ولذلك عندما قدم مكة معتمراً قال له أهل مكة : أصبأت ؟ فقال : لا ، ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ﷺ ، ثمّ قال لهم : والله لا يأتيكم من اليمامة حبّة حنطة ، حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ (١)

---

(١) جامع الأصول ١٠/ ٧٤ ـ وسياق الرواية هنا لمسلم .

لماذا خرّت كنائس فارس

عندما يخوض المسلمون مجالات الحياة في السلم والحرب يظهرون الإسلام حقيقة واقعة تراها الأعين وتسمعها الآذان وتعيها العقول - عند ذلك يشاهد الناس هذا الدين وقد تبدى في الفرد المسلم والأسرة المسلمة والمجتمع المسلم ، وهنا يكون التحول الكبير ، تحول البشرية عن الضلال والباطل التي تعيشه متمثلاً في عادات وتقاليد ونظم ، ولذا فإنّ أعداء الله وشياطين الإنس والجنّ يريدون الإسلام معلومات تحشى بها الأذهان ، وطقوساً تقام بين الجدران ، وأنشودة يتغنى بها عن الماضي الجميل ، عندما كان الإسلام في الماضي حياة يعيش في ظلها أسلافنا ، تمدهم بهناء قلوبهم ، وسعادة نفوسهم ، منه يستمدون آدابهم وقوانينهم ، وبأمره تقوم مئات الألوف مندفعة في كلّ اتجاه تصدح بالأذان ، على أنغام أصوات السيوف في حومة الوغى ، وتحت ظلالها - عندما كان الأمر كذلك تحولت أمم ضالة زائغة إلى الإسلام ، لقد كانت النصرانية منتشرة في مصر والشام وفارس ، فما هي إلاّ جولات في سنوات قليلة حتى غزا الإسلام القلوب بنوره الوضاء بعد أن انكشفت حجب الباطل عن قلوب أهل تلك الديار ، هذه صحيفة من الماضي لم يخطها قلم رجل مسلم ، بل قلم رجل نصراني يشكو لصاحب له حال أمّة النصارى التي تحولت إلى الإسلام بلا إكراه ، وقد صدق في ذلك ، ولكنه لم يعرف الحقيقة أو تجاهلها عندما زعم أنهم دخلوا في هذا الدين من أجل الدنيا ، فالدنيا لا تحوّل أمة بأكملها هذا التحوّل الرائع .

يقول البطريق « يوساب الثالث » العيقوبي في خطاب طويل بعث به لحبر زميل له (في العهد الأموي) : « أين أبناؤك أيها الأب ! أين هذا الشعب العظيم شعب مَرْو ! لم تصبهم جائحة ، ولا سقطوا بالسيف ، ولا عذبوا بنار ، وإنما أصابهم متاع الدنيا ، فارتدوا عن دينهم ، وقذفوا بأنفسهم كما يقذف المجانين في مهاوي الهلاك والكفر ، فلم ينج من هذا السعير إلا قسيسان اثنان فرًّا بنفسيهما من جحيم الكفر (يريد الإسلام) ، واحسرتاه على الآلاف المؤلفة الذين حملوا اسم المسيحية وصفتها ، ولم يقع منهم شهيد واحد ولا ضحى واحد منهم لدينه !!

أين كذلك بيع كرمان وكنائس فارس ! لم يكن قدوم شيطان ولا ملك ولا أمير ، ولا أمر خليفة أو سلطان هو الذي قضى عليها . لم يكن ساحراً موهوباً أوتي المنطق وسلطه الشيطان على النفوس ، ولكنه ساحر هز رأسه فقط فخرت كنائس فارس كلها على الأرض ! أما العرب الذين آتاهم الله ملك الدنيا كما تعلم ـ فإنهم عندك كذلك ـ لم يطعنوا في ديننا ، ولا اعتدوا على بيعنا ، بل بالعكس ، ضالعوا مع ديننا وفضلوه على غيره ، وأكرموا رهباننا وقساوستنا ، واحترموا أولياءنا ، وأحسنوا الهبات الى معابدنا ، فلماذا إذن هجر أهل مرو نصرانيتهم زلفى لهؤلاء العرب ، وهم يعلمون ويقولون : إن العرب ما طلبوا منهم تغيير دينهم ، بل أقروهم عليه كاملاً ، ولكنهم اشتروا خلود أرواحهم في دين المسيح بمتاع قليل »[1] ، وكذب في دعواه بل اشتروا متاعاً فانياً بباق .

(١) الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام ص ٣١٦ .

أثر رحمة المسلمين بأعدائهم

تحطمت الموجات المتلاحقة التي قام بها التتار في نهاية الأمر على صخور الإسلام الراسية ، وجباله الشم العالية ، وذاب الغزاة في مجتمعات المسلمين ، واعتنقوا آخر الأمر الدين الذي جاؤوا لازالته من الوجود .

وأعلنت النصرانية حرباً ضارية على الأمة الإسلامية ، وكانت حملات الصليبيين كالسيل الهادر تريد أن تمحو الإسلام من الوجود ، ولقد بقيت أخبار الحملات الصليبية لطخة قذرة في جبين أمم النصارى ، فقد كانت تلك الحروب صورة للتعصب المقيت ، والحقد الدفين ، والهمجية والرعونة ، وقد هزم المسلمون في النهاية الصليبيين في ميدان القتال ، وهزموهم في ميدان الأخلاق والعدل والنبل ، وقد حركت الأعمال الرائعة ـ التي كان الصليبيون يرونها في المسلمين ـ جوعاً كبيرة منهم إلى الإسلام ، فقد عرف هؤلاء أن ما هم فيه باطل وضلال ، وعرفوا أنهم كانوا مخدوعين من قبل فئة من الذين استغلوهم لمصالحهم ومآربهم ، وقد قارن هؤلاء بين إساءة أبناء ملتهم ، وإحسان اعدائهم لهم في كثير من المناسبات ، فكان ذلك باعثاً لهم ليتعرفوا على دين أعدائهم المحسنين .

يروي السير توماس عن راهب من رهبان سنت دنيس [1] ، كان قسيساً في المعبد الخصوصي للملك لويس السابع ، ورافقه في إحدى غزواته طائفة كبيرة ، يقول هذا الراهب : « وفي طريق الصليبيين الى المقدس ، عبر جبال الأناضول ، التقوا بجيش المسلمين ، فهزم الصليبيون شرَّ هزيمة ، وكان ذلك في الممر الجبلي

(١) الرسالة الخالدة لعبد الرحمن عزام ص ٣١٦ .

« فريجيا » وذلك سنة ١١٤٨ ، ولم يصلوا الى مرسى « أضاليا » إلا بشق الأنفس » ومنها استطاع القادرون بعد تلبية طلبات التجار اليونانيين الباهظة أن يرحلوا إلى أنطاكية بحراً ، وقد دفعوا مبالغ طائلة[1] ، وتركوا خلفهم الجرحى والمرضى والحجّاج ، فدفع لويس خمسمائة مارك لليونانيين على أن يعنوا بهؤلاء الضعفاء حتى يشفوا ، وعلى أن يرافقهم حرس اليونانيين حتى يلحقوا بمن سبقهم . فما كان من اليونانيين الغادرين إلا أن تربصوا حتى تباعد جيش الصليبيين ، واتصلوا بالمسلمين الأتراك وأخبروهم بما عليه الحجاج والجرحى ، ممن تخلفوا من الوهن والعجز ، ثمَّ قعدوا ينظرون الى إخوانهم في الدين ينال منهم البؤس والمرض وسهام المسلمين ، ولما ضاق الصليبيون المتخلفون ذرعاً بما أصابهم ، خرج ثلاثة آلاف أو أربعة من قلعتهم محاولين النجاة بأنفسهم ، فحصرهم المسلمون وشدُّوا عليهم ، ثمَّ حملوا على المعسكرات الصليبية ، وكان حال من خرج ومن بقي في المعسكر ليس فيه أقل رجاء ، ولم ينقذوا إلاَّ بما نزل في قلوب المسلمين من الرحمة ، حين أطلعوا على ما فيه عدوهم من بأساء ، وما أصابهم من ضراء ، رقَّت قلوبهم ، وذابت نفوسهم رحمة لأعدائهم الصليبيين المساكين ، فواسوا المريض وأحسنوا للفقير ، وأطعموا المسكين بسخاء وكرم ، وبلغ من إحسان المسلمين أنَّ بعضهم استردَّ بالشراء أو الحيلة أو القهر النقود الفرنساوية التي أخذها اليونان من الحجاج ، وردها عليهم ، ووزعها على المحتاجين من الصليبيين ، وقد كان الفرق واضحاً بين معاملة هؤلاء الكفار (يقصد المسلمين) للحجاج المسيحيين ، ومعاملة اليونان الذين سخَّروا إخوانهم في الدين ، ونهبوا أموالهم وضربوهم ، كان الفرق عظيماً لدرجة حملت الصليبيين على اعتناق دين الأعداء المنقذين ، ومن غير أن يكرهوا أو يقهروا ، لقد فرّوا من إخوانهم في الدين الذين أساؤوا إليهم ، فلحق ثلاثة آلاف بالجيش الإسلامي بعد أن رجع عنهم ودخلوا في دينه ، لقد كانت الرحمة أشدَّ قسوة من الخيانة ، لقد أعطاهم المسلمون الخبز وسلبوهم الإيمان . واحسرتاه ، لقد ارتدّوا عن المسيحية من غير أن يجبر واحد منهم على ترك دينه » .[2]

---

(١) أي عن كل فرد

(٢) يتحسر هذا المسكين على ترك هؤلاء لباطلهم . وكان أحرى به أن يتحسر على إهلاكه لنفسه بسبب كفره وضـ

الإنشاد بين التحريم والإباحة

تواترت الأخبار عن أصحاب المصطفى المختار أنهم كانوا ينشدون الأشعار في حضرته في الحضر وفي الأسفار تنشيطاً لكلال النفوس ، وتنبيهاً للرواحل أن تنهض في أثقالها .

وكان مما يقولونه وهم يحفرون الخندق :

نحن الذون بايعوا محمداً على الجهاد ما بقينا أبدا

فيجيبهم الرسول ﷺ بقوله : « اللّهمّ لا خير إلاّ خير الآخرة ، فاغفر للأنصار والمهاجرة » .

وكان البراء بن عازب يحدو بالرجال في مسارهم بالأسفار ، وكان أنجشة يحدو بالنساء ، وفي صحيح مسلم أنه « كان للنبي ﷺ حاد يقال له أنجشة ، فقال له النبي ﷺ : « رويداً سوقك بالقوارير » يعني النساء .

وجد أقوام فمنعوا مثل هذا الإنشاد ومثل هذا الحداء ، الذي يروح النفوس ويجمّها ، وجاوز أقوام الطريق فأصبح الإنشاد والغناء شغلهم الشاغل ، وأحدثوا له أنغاماً ، ورققوا أصواتهم ، حتى أصبح فنّاً ، لا أقول هذا عن الفساق من المغنين والمغنيات ، وإنما مرادي أولئك الذين اتخذوا هذا ديناً وقربة إلى الله تعالى ، وشغلوا بذلك أوقاتهم ، وهجروا قرآن ربهم .

والفريق الوسط يتمثل في أولئك الذين يروحون عن النفوس بمثل حداء

العرب في بعض أوقات الفراغ ، وفي الأسفار ، وحين القيام بشيء من الأعمال ، يحدون وينشدون على السجيّة ، وتكون أبيات النشيد تحبيباً في الزهد ، وترك الغرور والباطل ، أو حثاً على طلب العلم ، والرغبة فيما عند الله ، أمثال هذه الأبيات التي كان يترنَّم بها بعض الصالحين :

وفؤاد كلَّما عاتبته في مدى الهجران يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلاّ لاهياً في تماديه فقد برَّح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا فنى العمر كذا في اللعب
وشباب بان عنّي فمضى قبل أن أقضي منه أربي
ما أرجي بعده إلاّ الفنا ضيق الشيب عليَّ مطلبي
ويح نفسي لا أراها أبدا في جميل ولا في أدب
نفسي لا كنت ولا كان الهوى راقبي المولى وخافي وارهبي .

أثر العقيدة الفاسدة والهوى الجامح

الذين يسعون إلى الهلاك والدمار

نعجب أشد العجب إذا رأينا من يبذل جهده وماله فيما لا يعود عليه بالخير ، وقد يعود عليه بالضرر .

فإذا رأينا شخصاً يصيد السمك من البحر ، ثم يرميه في البحر مرة أخرى بعد أن بذل في صيده جهداً كبيراً ، وإذا رأينا شخصاً يبذل مالاً كثيراً ثمناً لأفاعي وعقارب لا يكاد يدخلها داره حتى توسعه وأهله نهشاً ولسعاً ، وإذا رأينا من يشتري داراً آيلة للسقوط بثمن كبير لا يكاد يبيت فيها وأهله حتى تنهار فوق رؤوسهم - إذا رأينا هؤلاء وأمثالهم فإننا نعجب من حالهم كثيراً ، ونتوجه اليهم باللوم والتأنيب .

وقد وجه الله أنظارنا إلى أمثال هؤلاء ، فاليهود الذين كانوا يسكنون المدينة نقضوا عهودهم ، فأذاقهم الله عاقبة مكرهم ، ووصل بهم الحال إلى أن هدموا بيوتهم بأيديهم لكيلا يستفيد المسلمون منها ﴿ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُوا۟ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَبْصَـٰرِ ﴾ (١) .

والسبب الذي يجعل بعض الناس يبذلون جهودهم وأموالهم في أمور لا تعود عليهم بالخير ، وقد تعود عليهم بالشر - يرجع إلى ضعف في العقل ، أو قصور في العلم ، فبعض الناس يتصرفون تصرفات الحمقى لأنهم فقدوا عقولهم أو لأن في عقولهم نقصاً وآخرون يظنون أن في ما يقومون به من أعمال خيراً ، وواقع الأمر أنها

---

(١) سورة الحشر : ٢

شر كلها ، والأعجب من كل هذا أن يكون عند الناس العقول ، ويأتيهم من يعرفهم بالخير والشر ، ومع ذلك فهم يقدمون على أعمال تدمرهم وتهلكهم .

لقد جاءت الرسل من عند الله إلى البشر على امتداد العصور ترسم لهم الطريق الذي يحقق لهم السعادة والهناء ودعتهم الى سلوك هذا الطريق ، وحذرتهم من الانحراف عنه ذات اليمين وذات الشمال ، ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ﴾ (١) .

والسبيل يتمثل بما شرعه الله لعباده في العقائد ، وفيما شرعه من عبادات ، وفيما أحله وأباحه ، وتجاوز ذلك كله أو بعضه انحراف عن الطريق وتعدٍّ لحدود الله .

والسير في الصراط المستقيم يتمثل في أعمال تبذل ، وأقوال تنطق ، وتفكير ومعاناة ، والانحراف عن الصراط المستقيم يتمثل في ذلك أيضاً ، إلا أن ما يبذله الإنسان في السبل المنحرفة عن النهج الإلهي المستقيم يعود على الإنسان بالدمار .

انظر الى حال الذين يتعدون الحلال إلى الحرام ، يتركون الطيبات من الطعام والشراب ويتناولون الحرام كالذين يشربون الخمر ويأكلون الخنزير والميتة ، إنهم يستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير ، ويشترون صفقة خاسرة تعود عليهم بالضرر في عقولهم وأبدانهم ، وتكسبهم صفات خبيثة تدنس نفوسهم .

والذين يتركون الزواج المشروع الى الزنا واللواط ، والذين يتجاوزون ما أحله الله من الكسب المشروع إلى ما حرمه من الاتجار بالحرام ، والتعامل بالربا ، والذين ينتهكون اعراض المسلمين وينشرون بينهم الفاحشة باسم الفن والتمدن ، فتخرج النساء متبرجات في الشوارع وأفلام السينما وعروض المسرح يتمايلن ويغنين

(١) سورة الأنعام : ١٥٣

ويرقصن ، أو يظهرن في دعاية لسلعة أو خدمة ـ كل هؤلاء يبذلون جهداً ومالاً في غير محله ، وهو يعود عليهم بالضرر .

وهذا الضرر يشاهد في كثير من الأحيان ويلمس ، نشاهده في الأضرار التي تصيب الأجساد والمجتمعات بحيث تنشر الأحقاد والعداوة والبغضاء ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾ (١) .

وهذا ما عبّر عنه القرآن بظلم الإنسان لنفسه ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ﴾ (٢) . ﴿ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٣) .

ثم هذا التعدي يصيب الإنسان بالشقاء النفسي ، ذلك أن الابتعاد عن منهج الله يقسي القلب ، ويخبث النفس ، ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ (٤) .

وأعظم من ذلك كله أن تعدّي حدود الله وشرعه يجلب غضب الله تعالى ، وقد ينزل الله عقابه بالظالمين ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴾ (٥) ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِۦ فَحَاسَبْنَٰهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَذَّبْنَٰهَا عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَٰقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا ﴾ (٦)

وعندما ينزل العذاب بسبب ظلم العباد تذهب السكرة وتأتي الفكرة ، ويقع الاعتراف بالذنب ولكن حيث لا ينفع الاعتراف ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ

(١) سورة المائدة : ٩١
(٢) سورة الطلاق : ١
(٣) سورة البقرة : ٢٢٩
(٤) سورة طه : ١٢٤
(٥) سورة الحج ٤٥
(٦) سورة الطلاق : ٨ ـ ٩

كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ (١) .

هذا في الدنيا ، أما العقوبة لمن تعدى حدود الله في الآخرة فهي عقوبة رهيبة ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ ﴾ (٢) .

وقال تعالى : ﴿ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ (٣) .

إن الذين يسعون ليلهم ونهارهم ضاربين في هذه الحياة بمنهج غير منهج الله يكدون ويكدحون في العبادة والتجارة والصناعة ، في سبيل متع الحياة ولذاتها إنما يسعون في إهلاك أنفسهم .

ونحن ندعوهم إلى الإسلام ، إلى الصراط المستقيم ، ندعوهم إلى أن ينطلقوا في هذه الحياة آخذين الأمور من حيث يريدها الله ، في الفكر والعقيدة ، في العبادة والسلوك ، في القيم والأخلاق ، في التجارة والزراعة وكسب المال ، في الطعام والشراب واللباس، ندعوهم إلى ذلك لأن في ذلك خيراً لهم ، في الدنيا والآخرة ، ولأنَّ في ذلك صلاحاً لأجسادهم وتزكية لنفوسهم . ولأن في ذلك صلاحاً لهذا الكون الذي يعيشون فيه ، وصلاحاً للمجتمع وهم جزء منه ﴿ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ ﴾ (٤) . ندعوهم إلى ذلك ،

---

(١) سورة الأنبياء : ١١ - ١٥
(٢) سورة طه : ١٢٤ - ١٢٧
(٣) سورة النساء : ١٤
(٤) سورة الروم : ٤١

ونحذرهم من الانحراف خشية أن يصيبهم ويصيبنا غضب الله ومقته ﴿ وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً ﴾ [1] . وقد قالت عائشة للرسول ﷺ : أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : « نعم إذا كثر الخبث » .

لقد جاءت الرسل يدعون الى الله والى طريقه ويحذرون البشرية من تعدّي حدوده ، ويقيمون الحجة عليهم بذلك .

ونحن اليوم علينا أن نعيد دعوة الرسل غضة طرية ، نطالب الناس بالاستجابة لله ، ونضعهم أمام مفرق طريق ، نقول لهم : الربا رجس ، والزنا جريمة ، وترك الصلاة إثم كبير ، وتبرج المرأة فسق . . . وذلك كله إثم ومعصية لله ، ونحن ندعوكم الى الله وترك ذلك كله ، علينا أن نترك التعليل وبيان الأسباب لأن أعظم سبب ينبغي أن يقود الناس الى الأعمال الصالحة ويردهم عن الأعمال السيئة كونها من عند الله أمر بها أو نهى عنها ، وهذا الطريق الحق يتبين بأيسر جهد أما بيان العلل والمصالح فإنه طريق طويل خاضع للأخذ والعطاء ، والنقاش والخصام ، وهذا السبيل يصلح مع الذين يريدون التعرف على الحكم بعد إيمانهم وتسليمهم بها .

نحن في مجتمعنا ركاب سفينة واحدة ، والذين يتجاوزون حدود الله يريدون صدع السفينة وبذلك يهلكون غيرهم ، ومن الحمق والسفاهة أن يقول قائل دعوهم مالكم ومالهم ، لكل إنسان حريته ، علينا أن نكون (ديموقراطيين) ، لا يجوز أن نحجر على عقول الناس وأعمالهم ، من يقول ذلك لا شك في حمقه ، وسيعلم أنه أحمق عندما يندفع الماء من حيث أفسد المفسدون ، فيجدون أنفسهم في لجة البحر ، حيث لا يسمع صريخهم سامع ، ولا ينقذهم منقذ ، عند ذلك يعلمون أن ما فعله أولئك لم يكن حرية ، بل فساد ، لقد كان جريمة ، وكان الواجب الأخذ على أيدي المفسدين ، علينا أن نفيق قبل أن يأتي يوم لا ينفع فيه

---

(١) سورة الأنفال : ٢٥

الندم ، وعند ذلك يكون حالنا حال أولئك الذين قصّ علينا حديثهم ﴿ قَالُوا يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴾ (١) .

(١) سورة الأنبياء : ١٤ ـ ١٥

ضن الخبيث بملكه

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعۡبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرۡفٖۖ فَإِنۡ أَصَابَهُۥ خَيۡرٌ ٱطۡمَأَنَّ بِهِۦۖ وَإِنۡ أَصَابَتۡهُ فِتۡنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجۡهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ (١) ، بعض الناس يقبلون على هذا الدين ما أقبلت عليهم الدنيا ، فإن كان في أخذهم بالدين خسارة دنيوية انقلبوا عنه وهجروه وآثروا العاجل على الآجل ، وهم في ذلك يعلمون أنّه الحقُّ وأنّه الدين المنزل من عند الله ، هذا هرقل ملك الروم يرسل إليه الرسول ﷺ رسالة يدعوه فيها إلى الإسلام ، ويطلب هرقل رجلاً يعرف الرسول ﷺ فيأتونه بأبي سفيان ، وكان في تجارة إلى الشام ، ويسأل هرقل أبا سفيان أسئلة تنبيه عن صدق الرسول ، ويعلم يقيناً أنّه الرسول الخاتم الذي بشرت به الرسل من قبل ، ويخبر هرقل أبا سفيان بأنّ الإسلام سينتصر وسينتشر ، ورغب هرقل في الإسلام ، ولكنّه أراد الإسلام والاحتفاظ بملكه معاً ، فلما كان بمدينة حمص ، أذن هرقل لعظماء الروم في دسكرة له ، ثمّ أمر بأبوابها فاغلقت ، ثمّ قال : يا معشر الروم ، هل لكم في الصلاح والرشد ، وأن يثبت الله ملككم ، فتبايعوا هذا النبي ؟ فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب ، فوجدوها قد غلقت ، قال : عليَّ بهم ، فقال : إني اختبرت شدّتكم على دينكم ، فقد رأيت منكم الذي أحببت ، فسجدوا له ورضوا عنه » (٢) .

---

(١) سورة الحج : ١١

(٢) الحديث رواه البخاري ومسلم . جامع الأصول ١٢/ ٣٤

لقد كان هرقل صادقاً عندما شاور قومه في الإسلام واتباع الرسول ﷺ ، ولقد كان كاذباً عندما زعم أنه أراد اختبارهم ، لقد ضنَّ هذا الخبيث بملكه ، وآثاره على اتباع الحق ، وقد حدث خلاف هذا من النجاشي الذي آمن بالرسول ﷺ واتبعه وآوى أصحاب الرسول ﷺ .

دليل صحتها تناقضها

قاتل الله التقليد ، كم أضلَّ من عباد الله ! وكم ألغى من حجج العقول ، فتابع من ظهرت له الحجة غيره من غير دليل وبرهان ، إلاَّ أن الرجل يجد الناس قد ساروا في طريق فيشقُّ عليه خلافهم ، وقد تقوم الحجة عنده على أن الصواب في مخالفتهم ، ولكنه لا يجرؤ على ذلك ، وقد ينصب نفسه محامياً ومدافعاً عن الباطل الذي قامت الأدلة على بطلانه ، ويرفض الحق الذي قامت الأدلة على صحته ، وإنما جاءه البلاء من اغتراره بالكثرة التي اتبعت الباطل ، وشق عليه مخالفة السابقين .

حكى المسعودي أنَّه كان في أعلى صعيد مصر رجل من القبط ممن يظهر دين النصرانية ، وكان يشار إليه بالعلم والفهم ، فبلغ خبره أحمد بن طولون ، فاستحضره وسأله عن أشياء كثيرة ، من جملتها أنَّه أمر في بعض الأيام وقد أحضر مجلسه بعض أهل النظر ليسأله عن الدليل على صحة دين النصرانية ، فسألوه عن ذلك ، فكان استدلاله عجباً ، كان دليل الصحة هو دليل البطلان .

قال : دليلي على صحتها وجودي إياها متناقضة متنافية ، تدفعها العقول ، وتنفر منها النفوس ، لتباينها وتضادها ، لا نظر يقويها ، ولا جدل يصححها ، ولا برهان يعضدها من العقل والحس عند التأمل فيها ، والفحص عنها .

وسألوه عن التضاد الذي فيها ، فقال : وهل يدرك ذلك ، أوتعلم غايته ؟!

منها قولهم بأن الثلاثة واحد ، وأن الواحد ثلاثة ، ووصفهم للأقانيم والجوهر وهو الثالوثي ، وهل الأقانيم عالمة في أنفسها قادرة عالمة أم لا ؟ وفي اتحاد ربهم القديم بالإنسان المحدث ، وما جرى في ولادته وصلبه ، وقتله ، وهل في التشنيع أكبر وأفحش من إله صلب وبصق في وجهه ، ووضع على رأسه إكليل الشوك ، وضرب رأسه بالقضيب ، وسمرت قدماه ، ونخز بالأسنة والخشب جنباه ، وطلب الماء فسقي الخل ، من بطيخ الحنظل .

كل هذا يعلمه ويدركه هذا الرجل ، ثم يعتقد بعد ذلك صحة دين النصرانية ، لأنه رأى أمماً كثيرة ، وملوكاً عظيمة ذوي معرفة وحسن سياسة ، وعقول راجحة ، قد انقادوا اليها ، وتدينوا بها ، مع ما ذكر من تناقضاتها في العقل ، فكان ذلك دليلاً على أنهم لم يقبلوها ولا تدينوا بها إلا بدلائل شاهدوها ، وآيات ومعجزات عرفوها ، أوجبت انقيادهم إليها ، والتدين بها (1) .

لا تعجب أخي من حال هذا المقلد الضال فالمقلدون هكذا ، تعرض لهم الأدلة والبينات فلا يكون جوابهم إلا قولهم : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ (2) .

ماذا كان جواب عباد الأصنام المصنوعة من الصخر الأصم ؟ ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُواْ بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ (3) ، وعندما كانت الرسل تنادي أقوامها كانوا يعرضون ، ثقة بما كان عليه الأباء ، واستعظاماً لمخالفتهم ، وإن كان الحق في مخالفتهم ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ (4) .

---

(1) الاعتصام للشاطبي ١/ ٢٠٣
(2) سورة الزخرف : ٢٣
(3) سورة الشعراء : ٧٢ ـ ٧٤
(4) سورة المائدة : ١٠٤

كيف ضلّ حمدان قرمط ؟

من الفرق التي عملت على هدم الإسلام من داخله ، تلك التي يطلق عليها علماء المسلمين الباطنية ، لأنها تدّعي أنّ لظواهر القرآن والأخبار بواطن تجري في الظواهر مجرى اللب من القشر ، وأغرقوا في هذا الاتجاه فضلّوا وأضلّوا .

والباطنية لهم ألقاب كثيرة كالقرامطة ، والخرمية ، والاسماعيلية ، والبابكية .

والقرامطة نسبة إلى حمدان قرمط ، وفي قصة حمدان هذا عبرة وعظة ، وينبغي أن يتنبه العلماء والدعاة إلى الطريقة التي ضلّ بها هذا الرجل ، ثمّ أصبح داعية من دعاة الضلال حتى يحصنوا الأجيال من مثل هذا الضلال .

كان حمدان قرمط رجلاً من أهل الكوفة مائلاً الى الزهد [1] ، فصادفه أحد دعاة الباطنية في طريق ، وهو متجه الى قريته ، وبين يديه بقر يسوقها .

فقال حمدان لذلك الداعي ـ وهو لا يعرفه ولا يعرف حاله ـ : « أراك سافرت عن موضع بعيد ، فأين مقصدك ؟ فذكر موضعاً هو قرية حمدان .

فقال له حمدان : اركب بقرة من هذه البقر لتستريح من تعب المشي ، فلما رأى ذلك الداعي الباطني حمدان مائلاً الى الزهد والديانة أتاه من حيث رآه مائلاً إليه ، وهكذا دعاة الباطل يلقون في شباكهم الحبّ الذي يعلمون أنّه يروق من

(١) انظر خبره في كتاب : فضائح الباطنية للغزالي ص ١٢

يريدون اصطياده ، وهذا هو ما فعله معلمهم الأوّل : إبليس في اضلاله لآدم ، حيث أغراه بالأكل من الشجرة بما زينه وحسنه له من باطل ، حيث أوهمه أنّ تلك الشجرة هي الشجرة التي يخلد من أكل منها ، وينال ملكاً لا يناله البلى .

قال ذلك الداعي لحمدان عندما طلب منه أن يركب بقرة من بقره : إني لم أؤمر بذلك .

فقال حمدان : وكأنك لا تعمل إلاّ بأمر ؟

قال : نعم .

قال حمدان : وبأمر من تعمل ؟

فقال الداعي : بأمر مالكي ومالكك ، ومن له الدنيا والآخرة .

فقال حمدان : ذلك إذن هو ربُّ العالمين .

فقال الداعي : صدقت ، ولكن الله يهب ملكه لمن يشاء .

قال حمدان : وما غرضك في البقعة التي أنت متوجه إليها ؟

قال : أمرت أن أدعو أهلها من الجهل إلى العلم ، ومن الضلال الى الهدى ، ومن الشقاوة الى السعادة ، وأن أستنقذهم من ورطات الذل والفقر ، وأملكهم ما يستغنون به عن الكدّ والتعب .

فقال له حمدان : أنقذني ، أنقذك الله ، وأفض عليَّ من العلم ما يحببني به ، فما أشدُّ احتياجي الى مثل ما ذكرته .

فقال الداعي : وما أمرت بأن أخرج السرَّ المخزون لكلّ أحد ، إلاّ بعد الثقة به ، والعهد عليه .

فقال حمدان : وما عهدك ؟ فاذكره لي ، فإني ملتزم له .

فقال الداعي : أن تجعل لي وللإمام على نفسك عهد الله وميثاقه أن لا تخرج سرّ الإمام الذي ألقيته إليك ، ولا تفشي سرّي أيضاً .

فالتزم حمدان سرّه ، ثمّ اندفع الداعي في تعليمه فنون جهله ، حتى استدرجه واستغواه ، واستجاب له في جميع ما دعاه ، ثمّ انتدب حمدان للدعوة ، وصار أصلاً من أصول الدعوة ، فسمى أتباعه القرامطة .

لا ينبغي لأحد أن يظنَّ أن مثل هذا الضلال لا يجوز إلاَّ على البسطاء من الناس ، فكثير من الذين يرى أنَّ لهم عقلاً وفضلاً يقعون في مثل هذا ، فقد رأيت يوماً في الحرم النبوي في المدينة المنورة رجلاً يتكلم بكلام خلط فيه حقاً بباطل ، وكان هذا الرجل قد ادّعى انه المهدي المنتظر وسجن عدة مرات[1] ، جلس يتكلم هذا الرجل كلاماً ما كنت أظنُّ أن أحداً يمكن أن يجوز عليه ذلك الكلام ، ولكنني فوجئت عندما خرجت مع أحد التجار الذين سمعوا مثل ما سمعت ، فإذا به يقول : وما المانع من أن يكون قوله حقاً ، وأنه المهدي المنتظر ، وأخذ يسرد على مسامعي قصصاً كثيرة تدل على زهد الرجل وتقواه وتعففه ، فقلت : سبحان الله ! أهكذا تعرف الحق من الباطل ، وتميِّز الصالح من الطالح ، إنَّ في البوذيين من الزهد في عرض الدنيا شيئاً كثيراً ، فهل يجعل زهدهم قولهم حقاً ؟!!!

إن الباطل ينبغي أن يكشف عواره قبل أن يستفحل شرَّه ، ويزداد خطره ، ويسري بين المسلمين كما يسري السرطان في جسم الإنسان ، وعند ذلك لا سبيل الى الخلاص منه ، وأكثر الذين يتعرضون للأمراض أولئك الزهاد الذين لا علم عندهم والتاريخ شاهد على صدق ما نقول .

---

(١) كان ذلك في عام ١٩٦٢

الخبر الذي حلَّ سجلَّ السخطة

حادثة طريفة جرت في الأندلس فيها عجب وغرابة ، يذكر الشاطبي أن رجلاً كان يدعى محمد بن يحيى بن لبابة كان قاضياً ومن أهل الشورى ، ثمَّ عزل عن كلا المنصبين لأشياء نقمت عليه ، وسجِّل بسخطته القاضي حبيب بن أبي زياد ، وأسقط عدالته ، وألزمه بيته ، وحرَّم عليه الفتيا .

أثار ذلك محمد بن يحيى وملأ صدره حنقاً ، وأخذ يتحين الفرصة ، ليرد الصاع صاعين ، وقد أتته سريعاً ، فقد غاضب الفقهاء الملك الناصر ، وكان سبب ذلك أنَّ الناصر كان له منتزه يطلُّ على وقف مخصص للمرضى ، فكان إذا أطلّ على ذلك الوقف ورأى ذوي العاهات تكدر خاطره ، وآذاه منظرهم ، فكلَّم الناصر القاضي ابن بقي ، فقال له القاضي : لا حيلة عندي فيه ، ولم يساعده على الوصول لهدفه ، ونيل غايته ، ذلك أنَّه مالكي المذهب ، ومذهب مالك يمنع من ذلك ، فطلب الملك من القاضي أن ينقل رغبته الى الفقهاء لعلهم يجدون له رخصة ، ووعد بأن يبذل عوضاً عنه أضعاف قيمته،فلم يجد الفقهاء سبيلاً لاجابة طلبه ، وأصروا على الرفض ، فأمر الناصر أن يوجهوا الى القصر ، وأمر الوزراء بتوبيخهم ، فجرت بينهم وبين بعض الوزراء مكالمة ، ولم يصل الناصر إلى مقصوده .

دفع ابن لبابة بعضاً من أصحابه الى الناصر ، يقول : إنَّ الفقهاء حجَّروا على الملك واسعاً ، ولو كان حاضراً لأفتاه بجواز المعاوضة ، وتقلد حقّاً وناظر

أصحابه فيها ، فوقع الأمر بنفس الناصر ، وأمر بإعادة ابن لبابة الى الشورى على حالته الأولى ، ثمّ أمر القاضي بمعاودة المشورة في المسألة ، فاجتمع القاضي والفقهاء ، وجاء ابن لبابة في آخرهم ، وعرفهم القاضي ابن بقي بالمسألة التي جمعهم من أجلها ، وما وعد الناصر ببذله عوضاً عنها ، فقال جميعهم بقولهم الأوّل من المنع بتغيير الحبس عن وجهه ، وابن لبابة ساكت ، فقال له القاضي : ما تقول أنت يا أبا عبدالله ؟ قال : أمّا قول إمامنا مالك بن أنس فالذي قاله أصحابنا الفقهاء ، وأمّا أهل العراق فإنهم لا يجيزون الحبس أصلاً ، وهم علماء أعلام يقتدي بهم أكثر الأمّة ، وإذا بأمير المؤمنين من الحاجة إلى هذا المحبس ما به ، فما ينبغي أن يردّ عنه ، وله في السنة فسحة ، وأنا أقول بقول أهل العراق ، وأتقلد ذلك مذهباً .

سبّح الفقهاء متعجبين من مخالفة هذا الرجل للقول الذي أفتى به أسلافهم ومضوا عليه ، وهو رأيهم ورأى أمير المؤمنين ورأى آبائه .

فقال لهم ابن لبابة : ناشدتكم الله العظيم ! ألم تنزل بأحد منكم ملمة بلغت بكم أن أخذتم فيها بغير قول مالك في خاصة أنفسكم ، وأرخصتم لأنفسكم في ذلك ؟ قالوا : بلى ، قال : فأمير المؤمنين أولى بذلك ، فخذوا به مأخذكم ، وتعلقوا بقول من يوافقه من العلماء فكلّهم قدوة ، فسكتوا . فقال القاضي : أَنْهِ إلى أمير المؤمنين فتواي ، فكتب القاضي بصورة المجلس إلى الناصر ، فجاء الكتاب من الناصر يأخذ فيه بفتوى ابن لبابة ، ثم جيء بكتاب آخر من الناصر يولي فيه ابن لبابة خطة الوثائق ليكون هو المتولي لعقد المعاوضة ، فهنىء بالولاية .

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى : ذاكرت بعض مشايخنا مرة بهذا الخبر ، فقال : ينبغي أن يضاف هذا الخبر الذي حلّ سجلّ السخطة الى سجلّ السخطة ، فهو أولى وأشدّ في السخطة مما تضمنه .

إنّ ابن لبابة لم يكن طالب حق عندما أفتى بما أفتى به ، إنّما كان يريد أن

يحقق للسلطان ما يهواه ، نحن لا نقول بقول أولئك الفقهاء الـذين منعـوا من الخروج عن مذهب مالك ، فمذهب مالك ليس ديناً مخالفاً لشريعة الإسلام ، ولكنه فهم للإسلام ، فإذا خالفه إمام كأبي حنيفة فلا بدَّ من النظر في دليل كل منهما وترجيح ما تقتضيه الأدلة ، وافق هوى الحاكم أو خالفه .

يقول الشاطبي رحمه الله : « إنمَّا الترجيح بالوجوه المعتبرة شرعاً ، وهذا متفق عليه بين العلماء ، فكلّ من اعتمد على قول غير محقق ، أو رجح بغير معنى معتبر فقد خلع الربقة ، واستند الى غير الشرع » [1] .

(١) قاله الشاطبي تعليقاً على حادثة ابن لبابة ، الاعتصام ٢/ ١٧٨ ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى ـ القاهرة .

قتلت أمها وأباها

قد يعبد الناس شجراً وحجراً ، وقد يعبدون شمساً وقمرا ، وقد يعبدون فأراً أو عجلاً ، وأخطر ما يعبده البشر أهواءهم ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾[1] .

بسبب الهوى كذبت الرسل ، وانتهكت الحرمات ، وضيعت الفرائض ، وسفكت الدماء ، وسلبت الأموال .

يذكر ابن كثير في البداية والنهاية[2] أنه جرت في سنة (٥٨٩) كائنة غريبة ، وهي أن ابنة تاجر من تجّار الطحين عشقت غلام أبيها ، فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره ، فواعدت البنت ذلك الغلام ليلة ، فجاء إليها متخفياً ، فتركته في بعض الدار .

إلى هنا والقصة ليس فيها غرابة ، والأمر الغريب هو ما حدث بعد ذلك ، فبعد أن هدأت الدار ، ونام أهلها ، أمرت البنت ذلك الغلام أن ينزل الى أبيها فيقتله ، ثمَّ أمرته بأن يثني بأمها الحبل ، ثمَّ أعطت تلك المجرمة ذلك المجرم الذي فتنت به حلياً بقيمة ألفي دينار ، وقد نالت يد العدالة ذلك المجرم ، فقتل ، وكذلك جزاء من قتل .

ويذكر ابن كثير أن ذلك الرجل والد البنت كان رجلاً صالحاً من خيار الناس ، كثير الصدقة والبر ، وكان شاباً وضيء الوجه .

---

(١) سورة الفرقان : ٤٣

(٢) البداية والنهاية : ٦/١٣ .

وقد جرت حادثة قريبة من هذه الواقعة في هذا القرن في اكتوبر ١٩٣٣ م في فرنسا ، وقد هزت الجريمة فرنسا بأسرها في ذلك الوقت[١] .

وتتلخص تلك الحادثة في أن رجلاً له بنت وحيدة في مقتبل العمر ، مستهترة في إرضاء شبابها ، تأوي الى حي الطلبة ، كثيرة الاخلاء ، وجدت أحد خلانها يشتهي أن يقتني سيارة ، فصممت على قتل أبيها وأمها ، وأن تستولي على ما عندهما من نقود ليقتني خليلها سيارة ولتتمتع هي وهو بما بقي في السرف والبذخ ، فعمدت الى والديها فدست لهما السم ، فأما والدها فقضي نحبه ، وبزت منه بضعة عشر ألف فرنك ، واما والدتها فصابرت الموت وتشبثت بأذيال الحياة ، فأثخنتها بالجراح حتى وثقت من ان ذلك كاف لازهاق روحها ، وابتزت منها ألفا وخمسمائة فرنك ، وأسرعت الى حي الطلبة ـ حيث ينتظرها خليلها ـ وظلت في رقص ومعاقرة وما يتبع ذلك ثلاثة أيام .

أمّا أبوها فقد علم به البوليس وأمرت الحكومة بدفنه ، وأمّا أمها فقد عثر عليها فاقدة الصواب فعولجت من السمّ ، وضمدت جراحها ونجت من الموت .

إن الإنسان عندما يبتعد عن رقابة ربّه وخالقه ، ويقطع حباله به ، ويهرب من عبودية جبار السموات والأرض يصبح عبداً لهواه وشهواته فيصير حيواناً ، بل الحيوان أرقى وأسمى منه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ﴾ [٢] .

---

(١) نشرت تفاصيلها جريدة الأهرام في حينها (انظر قصص الأنبياء للنجار (ص ٢٥٣) .
(٢) سورة الأعراف : ١٧٩

تمعَّر وجهه عندما سمع تحية الإسلام

شعر مدرّس التربية الإسلامية ، وهو يغادر الفصل بأنّه قدم شيئاً لأبناء المسلمين ، لقد شعر بأن الله قد وفقه توفيقاً كبيرا في تفهيم تلاميذه أدباً من آداب الإسلام ، هو تحية الإسلام : السلام ، لقد غرس في نفوسهم حبَّ هذه التحية ، ووضح لهم معانيها الجميلة ، وأسمعهم النصوص الدالة على فضلها ، والتي تبين عظيم أجر الذين يلقونها أو يردونها ، وبين لهم أن هذه التحية سمة مميزة لأبناء الأمة الإسلامية ، فلا يجوز لهم أن يستبدلوها بالتحيات الجاهلية ، أو تلك المستوردة التي تقال باللغة الانجليزية أو الفرنسية ، ووضح لهم الفارق بين تعلم اللغة الانجليزية ، وتعلم آداب الانجليز وأخلاقهم وعاداتهم ، ولقد تشبع التلاميذ بهذه المعاني أيمّا تشبع ، خاصة وأنهم طلبة فصل متقدم ، يعون ما يقال لهم ، ويدركون ما يلقى ، على الرغم من حداثة أسنانهم .

ومرَّ مدرس التربية الإسلامية أمام هذا الفصل في نهاية الحصة التالية وإذا بمدرس اللغة الانجليزية يخرج من ذلك الفصل هائجاً مرغياً مزبداً ، ويخاطب مدرس التربية الإسلامية قائلاً : ماذا فعلت بهؤلاء التلاميذ ، لقد أفسدت علينا التربية التي نربيها والتعليم الذي نعلمه .

ما القصة ؟ كان من عادة هذا المدرس أن يدخل الفصل فيلقي على التلاميذ تحية الصباح باللغة الانجليزية ، ويجيبون على تحيته بتلك اللغة .

وفي تلك الحصة التي أعقبت حصة التربية الإسلامية دخل المدرس على

عادته ، وعندما ألقى عليهم التحية إذا به يسمع إجابة مختلفة « كان الرد على تحيته : وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ، فاستشاط المدرس غضباً ، وخاطب الأولاد بخطاب نجل القلم عن تسطيره وذكره ، وقال من علمكم هذا ، فقال له أحدهم : علّمنا لغة الانجليز أيها الأستاذ ، ولا تعلمنا ولا تعودنا أدبهم ، فإذا بالمربي والمعلم ينهال على التلميذ النجيب ضرباً بيده ورجله ، وعاقب الفصل كله بالوقوف طيلة الحصة .

ترى لو كان المدرس الذي يدّرس لأبنائنا يهودياً أو نصرانياً هل يستطيع أن يفعل أكثر من هذا بأبناء الإسلام ! ترى هل يتمعر وجه هذا المدرس إذا سبَّ الإسلام أو رسول الله ﷺ كما تمعر عندما خالف التلاميذ الباطل الذي علمهم إياه .

كيف نربّي أبناءنا على الإسلام والذين يربون الأجيال لا يفقهون بدهيات الإسلام . إلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلاّ بالله .

من الذي تسبب في موت الطفل

ضمني مع بعض الأساتذة عملمدرسي ، وكنا أربعة مدرسين نجلس على طاولة واحدة عندما مرَّ علينا أحد موجهي المادة ، وما كاد ينصرف حتى فوجئت بأحد المدرسين الذين معنا ينهال بالسباب والشتائم على هذا الموجه الظالم ، فأنكرت عليه أشدَّ الإنكار ، فقال لي ، لا تلمني فهذا قتل ابني .

فنظرت إليه مستغرباً وقلت كيف ذلك ؟

قال : أنا مدرّس وزوجتي مدرّسة ؛ ولذا احتجنا الى خادم لترعى أولادنا في غيبتنا ، وفي أثناء الدراسة انصرفت الخادمة مغضبة ووقعنا في حيرة ، ولم ندرِ ما نفعل بالوليد الصغير الذي لم يمضِ على ولادته إلا فترة وجيزة ، وفي يوم اضطررت أن آخذه معي الى المدرسة وأن أتركه على كرسي السيارة على أن أستأذن من الناظر وانصرف فلم يكن عندي في ذلك اليوم إلاُّ حصة متأخرة ، وفوجئت عند دخولي المدرسة بأن السيد موجّه المادة موجود في الصباح الباكر ويريد أن يزورني في تلك الحصة المتأخرة ، وقد أنستني هذه المفاجأة ابني الصغير ، وذهبت الى زملائي الذين يدرسون ذلك الفصل الذي سيزوره الموجه ، وأخذت منهم الحصتين السابقتين على حصتي التي سيزورني فيها ؛ وذلك حتى أُعدَّ التلاميذوأذاكر لهم حتى يكونوا في المستوى اللائق ، ويحوزون رضا الموجه الكريم .

ولم أتذكر ابني إلا بعد انتهاء الحصة الموعودة ، ففزعت إلى السيارة ، ويا لهول ما رأيت ! لقد أسلم ولدي الروح ، طفل رضيع في سيارة مغلقة واقفة تحت

أشعة الشمس المحرقة في صيف بلد حار كهذا البلد ، بلا رعاية ولا عناية .

فقلت له : لا أدري لعل الذي قتل ابنك ليس هو الموجه ، فالموجه لم يكن يدري عن ابنك شيئاً ، ولم يكن يدري أنك تحضرّ لحصته لتبدو في عينه مدرساً مجيداً ، الذي قتله ذلك الحريص على جمع المال ، يعمل هو وتعمل زوجته ولو كان في ذلك دمار الأبناء . المهم أن تجمع المال وتكدسه ، لا أيها الزميل : الموجه ليس هو القاتل .

الأمبراطور بوكاسا

﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۞ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ (١) وطغيان بعض البشر عندما يملكون شيئاً من المال أو السلطان يكون فريداً وعجيباً .

إفريقيا الوسطى دولة فقيرة ، كثير من أهلها لا يجدون ما يقيم أودهم ، وهم يعملون ليل نهار لتحصيل الرزق ، ولم يهتم رئيس تلك الدولة الفقيرة بحال شعبه المنكود ، وإنما ركز اهتمامه على أن يصنع له ولأسرته أمجاداً تحاكي مجد نابليون ، لا بالقتال والحروب وإعداد الجيوش ، وإنما بتنصيب نفسه رئيساً مدى الحياة ، ثمّ بتنصيب نفسه امبراطوراً .

وقد كانت مراسيم تتويج الأمبراطور بوكاسا الأول امبراطور افريقيا الوسطى شبيهة بمراسيم تتويج الأمبراطور نابليون ، لقد استقدم (١٢٠) موسيقاراً ليعزفوا له . . . وألبس حرسه ثياباً شبيهة بثياب فرسان الطاولة المستديرة، واختار زوجته « كاترين » لتكون « جوزفين » أخرى . واختارت الأمبراطورة ثيابها من « أزياء لانفان الباريسية » وبلغ طول عباءتها خمسة أمتار ، حملتها عشر فتيات ، أطلقت عليهن لقب « وصيفات الشرف » وقد بلغ وزن فستانها (١٩) كيلوغراماً ، أما وزن ثياب الأمبراطور بوكاسا فقد بلغت (٣٨) كيلوغراماً .

واستقدم الأمبراطور بوكاسا الرسام الألماني « هانز لينوس » بطائرة خاصة نفاثة مرتين في شهر واحد لرسم الخطوط الأولى للوحة في قاعة العرش ، وأمر

(١) سورة العلق : ٦ ـ ٧

الأمبراطور بإطلاع الرسام الألماني على كل ما يحتاج إليه من ثياب التتويج ، إلى التاج الأمبراطوري وغير ذلك من مستلزمات الصورة التاريخية لصاحب الجلالة [1] . . .

قد يتقبل الناس مثل هذا البذخ والطغيان من زعماء دول قوية ثرية ولكن هذا الطغيان والتعالي من رئيس دولة فقيرة يكون مضحكا ومخزيا ، وحسبنا أن نعلم أن كثيرا من طلاب المدارس في تلك الدولة لم يعلموا بتحول دولتهم الى أمبراطورية ، ولذلك فقد زج الأمبراطور بأولئك الطلاب الذين أخطؤوا الاجابة حينما سئلوا عن الحكم في السجن .

لقد طار الزعيم بوكاسا عن عرشه في لمحة عين ، لقد خرج من بلاده في مهمة رسمية ، واستلم الذين كانوا عماد حكمه الحكم من بعده ، وبقي عرشه وتاجه وصولجانه هناك بعيداً عنه ، وأصبح بوكاسا العظيم حكاية تروى ، ولعلَّ الحكام في عالمنا الإسلامي يتَّعظون ويعتبرون ، فالملك عرض زائل ، والسلطان لا يدوم ، والله وحده مالك الملك ، ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[2] .

---

(1) جريدة السياسة الكويتية : ١٩٧٧/١٢/٢٠ .

(٢) سورة آل عمران : ٢٦

يبيحون تجارة الجنس ويحرمون الزواج

﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [1] ، المسلم الذي يحفظ هذه الآية من كتاب الله سيتذكرها كثيراً وهو يطالع الكتب والصحف التي تتحدث عن حياة الأمم غير الإسلامية ، فالمسلم يشاهد عمى قلوب هؤلاء وعمى بصائرهم ، ولا ينجو من هذا العمى علماؤهم وقضاتهم وأساتذتهم .

قرأت في صحيفة خبراً يقول [2] : « سيقت الى المحكمة في نيويورك فتاة تزاول البغاء في سن الرابعة عشرة ، فقرر القاضي أن يطلق سبيلها مبرراً ذلك بقوله : يجب على الدولة أن تحمي الجمهور من الفساد ، ولكن تجارة الجنس والملذات في اطار الحماية الطبية الحديثة لا تعدُّ خطراً على الصحة العامة والأخلاق ، ولذلك ليس هناك أساساً قانونيا للحكم بالغرامة أو بالحبس على فتاة تختار هذه المهنة ، ما دامت فئة من المواطنين الأمريكيين تلجأ الى « خدماتها » .

لقد وصل هذا الرجل الذي عميت بصيرته الى منصب القضاء ، ليجعل من هذه الجريمة الكبرى أمراً مشروعاً لا يستحق عقوبة ، ويجعل منه تجارة مشروعة ، والله يقول : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ [3] ويقول :

(١) سورة الحج : ٤٦

(٢) ملحق جريدة « القبس » الكويتية العدد ٢٠٦١ تاريخ ١٣/٢/١٩٧٨

(٣) سورة الإسراء : ٣٢

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [1] ، ثمَّ يأتي هؤلاء الذين عميت بصائرهم ليشنوا حملة على الإسلام والمسلمين بسبب إباحة تعدد الزوجات ، عجيب والله أمر هؤلاء الذين طمست بصائرهم ، يبيحون للمرأة أن تتاجر بعرضها مع عشرات الرجال ، ويحرمون عليها أن تكون زوجة مكرمة معززة ، يعدون ذلك حرية ، ويعدون هذا ظلماً ، سبحانك هذا بهتان عظيم.

---

(١) سورة النور : ٢

أربعة مليارات تنفق على الأموات

« وخير الهدى هدى محمد ﷺ » تذكرت هذه العبارة التي نرددها دائماً في خطبنا ومواعظنا ودروسنا وأنا أقرأ مقالاً يتحدث عن النفقات الهائلة التي يبذلها الأمريكيون في كل عام على موتاهم [1] .

يقول الكاتب : « ينفق الأمريكيون في كل سنة أربعة مليارات من الدولارات لأجل موتاهم ، وقد أفادت بهذا لجنة التجارة في الولايات المتحدة » .

ويذكر : أن سعر التابوت الذي يوضع فيه الميت يتراوح ما بين (١٠٠ ـ ١٠٠٠) دولار ، وهناك مصاريف فرضتها العادات والتقاليد كالزهور .

قارن هذا بهدى الإسلام في هذا الجانب ، تجد الأمر يتم في غاية البساطة ، قماش يلف به الميت ، ويدس في التراب ، ثمّ يعاد التراب فوقه ، يفعل هذا بالغني والفقير ، والحاكم والمحكوم « لا تابوت ولا زهور ولا بناء . . .

نحن لا ننكر أن هناك أقواماً حادوا عن هدى الإسلام ، فتراهم يشيدون القبور « ويبنونها بالرخام » ويقيمون عليها الأبنية الضخمة ، ويرفعون عليها القباب ، وهذا كله بعيد عن هدى الإسلام ، وهو من أفعال أهل الجاهلية ، وقد نهى الرسول ﷺ عن تشييد القبور والكتابة عليها في عدة أحاديث صحيحة .

---

(١) ملحق جريدة « القبس » الكويتية ١٣ (فبراير) ١٩٧٨ .

وبعض الناس في ديارنا يبذلون أموالاً وجهوداً هائلة عندما يموت قريب لهم ، في إقامة السرادقات ، وبذل الأموال لأصحاب العمم الذين يقرؤون القرآن على روح الميت . . . وكــل هذا من الضلال ، إن هدى الإسلام في العزاء سهل ميسور ، يحفظ طاقات الناس من أن تتبدد في غير مجالها ، ويحفظ أموالهم من أن تنفق في أمور تافهة .

•

أربعة ملايين للبحث عن قاتل

من أعظم النعم نعمة الأمن ، وقد امتن الله على قريش بهذه النعمة ﴿ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (١) ، ومتى فقد الناس نعمة الأمن فإنّ الحياة تتحول إلى شقاء ، وأيُّ شقاء . !

إذا فقد الناس نعمة الأمن فإن الحياة يتغير طعمها ، ولا ينعم الانسان بعد ذلك بماله ولا ولده ولا تسره مباهج الدنيا ، وتفقد نعمة الأمن إذا انتشرت الجريمة في المجتمع ، وقد تتبعت هذا الموضوع في بعض الصحف السيارة في فترة وجيزة فهالني انتشار الجريمة ، خاصة في المجتمعات التي نظنها متحضرة ، وسأورد بعض الأمثلة مما قرأت :

- في لندن اعتقل البوليس البريطاني رجلاً يعتقدون أنه « سفاح يوركشاير » ، وقد تمكن هذا السفاح من قتل ثلاث عشرة امرأة في خمس سنوات ، وطريقته في القتل واحدة ، فقد كان يضرب ضحيته من الخلف بمطرقة ثقيلة ثمّ يطعنها عدة مرات ، وقد نشر هذا السفاح الرعب والفزع في مدن شمال انكلترا خلال السنوات الماضية ، وقد حملت كثير من النساء في هذه المدن الأمشاط المصنوعة من المعدن للدفاع عن انفسهن .

وقد تزعم أحد قادة البوليس هناك ثلاثمائة محقق للبحث عن القاتل ، وتكلف البحث عنه أربعة ملايين من الجنيهات الاسترلينية (٢) .

---

(١) سورة قريش : ٤

(٢) جريدة « القبس » ٦/ ١/ ٨١

ونشرت جريدة « القبس » الكويتية في نفس العدد الذي نشرت فيه الخبر السابق أن ثلاثة عمال حدائق وعاملاً بشركة إنشاءات اشتركوا في اغتصاب فتاة عمرها عشرون عاماً ، وقد جرَّ العمال ضحيتهم ووضعوها بالقوة في سيارة ، ثمَّ اعتدوا على عفتها في مكان مهجور واحداً فواحدا .(١)

هذه نماذج من الجرائم التي يقوم بها الأفراد ، وقد تكونت عصابات للاجرام في كثير من الدول الأوروبية ، وبلغ من قوة هذه العصابات أن قطفت رؤ وس علية القوم من الحكام والقضاة ورجال الجيش والشرطة .

في ايطاليا تقوم عصابة تسمى « الألوية الحمراء » استطاعت في عام ١٩٧٨ أن تصل الى اختطاف رئيس وزراء ايطاليا في ذلك الوقت « الدومورو » ، وقد تركته جثة هامدة في سيارة في وسط المدينة .

وفي ٣١ ديسمبر من سنة ١٩٨٠ عندما كانت ايطاليا تستعد لاستقبال أحد أعياد النصارى : عيد الميلاد ، صرعت الألوية الحمراء الجنرال « ايزيكو غالفاليجي » أحد كبار جنرالات سلاح الدرك(٢) .

وكان الثوار في نفس الوقت يحتجزون قاضي روماجيوفاني دو أورسو رهينة(٣) ، وقد أطلقوا سراحه بعد ذلك بعد تنازلات من الحكومة .

وحسبنا أن نعلم ان الرئيس الايطالي ساندرو بيرتيني لا يستبعد أن تناله ايدي الألوية الحمراء المنتشرة في كل مكان ، وقد نشرت وكالات الأنباء تصريحاً للرئيس الايطالي في ٣١/ ١٢/ ١٩٨٠ قال فيه إنه يجب على السلطات الايطالية ألاَّ تسعى للافراج عنه إذا خطفته الألوية الحمراء ، وقد كتب رسالة في هذا المعنى لزوجته وسكرتيرته .(٤)

---

(١) المصدر السابق .
(٢) جريدة « الهدف » الكويتية ١٥ يناير ١٩٨١
(٣) جريدة « الوطن » الكويتية ٣١/ ١٢/ ١٩٨٠
(٤) المصدر السابق .

إن الشعب الايطالي مأخوذ لا يدري ماذا يفعل ، وقد خرجت جموع الشعب تودع جثمان الجنرال غالفاليجي وتصرخ وتشتم وزراء الدولة ، ومما كانوا ينادون به مخاطبين الحكومة : « استقيلي يا حكومة الجنائز . . . تباً لكم يا وزراء التنازلات ، الاعدام ، الاعدام ، افرضوا عقوبة الاعدام »[1] .

وبمناسبة مطالبة الشعب الايطالي باعادة عقوبة الاعدام فقد أذاعت وكالة كونا خبراً من باريس عن استطلاع للرأي نشرته جريدة « جورنال دي ديمانش » في يوم ٤/ ١/ ١٩٨١ دلَّ على أن ٦٣٪ من الفرنسيين يؤيدون فرض عقوبة الاعدام ، و٣١٪ أعربوا عن معارضتهم ، و٦٪ رفضوا ابداء رأيهم .

وقد أجرت الصحيفة هذا الاستفتاء على مجموعة من الفرنسيين عددها ألف شخص ، وعمر كل واحد منهم يزيد على الثامنة عشرة[2] .

وفي السلفادور حرب أهلية ، يقود اليساريون فيها المعركة ضد الحكومة ، وتذكر جريدة « الايكونومست » أنه قد هلك في مجزرة واحدة في سنة ١٩٨٠ اثنا عشر ألف من العزل[3] ، وتقول مجلة « لوبوان الفرنسية » : وفي كل صباح يتم العثور في حفر العاصمة على حوالى ثلاثين جثة مزقها الرصاص وقد ملأت أسماء المختفين أو المختطفين الصحف المحلية[4] .

هذا بعض ما كتبته بعض الصحف عن الجريمة في فترة وجيزة ، وفي هذا الذي كتب عبرة وعظة ، وكل الذي يأسى له المسلم أنَّ بعض أبناء المسلمين لا يزال يظن أننا لن نتحضر إلا إذا لعقنا قاذورات الغرب ، وشربنا المتعفن من فكره ، إنَّ

---

(١) « الهدف » الكويتية ١٥/ ١/ ١٩٨١

(٢) « القبس » ٥/ ١ / ١٩٨١

(٣) « القبس » ١٠/ ١/ ١٩٨١

(٤) جريدة « الوطن » ٢٤/ ١/ ١٩٨١

في ديار المسلمين بقية من الإسلام جعلت هذه الديار أكثر بلاد العالم أمناً ، وقد بدأت الجريمة تطل برأسها هنا وهناك كلما ابتعدنا عن الإسلام ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقي من وعظ بنفسه ، ها هم اليوم يصرخون من أعماق قلوبهم فزعين وجلين : أعيدوا عقوبة الاعدام ، أعيدوا عقوبة الاعدام ، وفينا اليوم من يقول عقوبة الاعدام ، وقطع يد السارق وحشية ،همجية ، سبحانك اللهم ، هذا بهتان عظيم .

امرأة تخاصم ربها وتردُّ أمره

على صخرة الإسلام الصلدة الراسية تتحطم الأمواج العاتية ، وعلى الرغم من ذلك فإن الأعداء لا يعتبرون ، وينسون أن لهذا الدين ربّاً يحميه ، يملك أحدهم شيئاً من المال فيظنّ أنه يستطيع أن يهدم الإسلام بماله ، ويملك بعضهم شيئاً من الذكاء فيظن أن حصون الإسلام ستتهاوى أمام فكره ، ويرتقي بعضهم على ظهور العباد فيظن أنه يجب أن ينسلخ الناس عن دينهم حباً في كلمة رضا يبديها ، أو نظرة يرمي بها من يريدهم له عبيداً .

وآخر هؤلاء زوجة أحد هؤلاء المغرورين ، أجرت معها مجلة « ماري كلير » الفرنسية ، مقابلة ، وسألتها عن رأيها في الحجاب ، فإذا بها تحاد الله في حكمه ، وتخاصمه في أمره ، وتقول في جرأة نادرة : « إنني ضد الحجاب » « ولماذا هي ضد الحجاب ؟ لقد تمخض الجبل فولد فأرة ، لقد تولد فكر العبقرية الذكية عن السبب ، السبب أن المحجبات يخفن الأطفال بمنظرهنّ الشاذ ، وقد قررت زوجة الرئيس الأستاذة الجامعية أن تطرد كل طالبة تلبس الحجاب من المحاضرة ، وهي تحرض كل مدرس على أن يحذو حذوها ، ولا أدري ماذا سيكون موقف الأستاذة إذا دخلت المحاضرة فوجدت طالبة نصرانية متدينة تجلس في قاعة الدرس بلباس الراهبات ، هل تطردها ، أم تبقيها إكراماً لوالدتها الانجليزية الأصل ؟! أم أن لباس الراهبات لباس لا يخيف الأولاد ، لأنّه ليس لباساً إسلامياً ، والذي يخيف الحجاب الإسلامي ، لا لأنه حجاب بل لأنه إسلامي ، ومن أدرى هذه المرأة أن

الإسلام لم يدع الى ارتداء الحجاب كما تزعم » لقد صعب عليها أن تقول : إنني كافرة بالدين الذي يقر الحجاب ، فأرادت أن تدلس على الناس بقولها : إن الحجاب ليس من الدين .

وعارضت الأساتذة زوجة الرئيس حكم الله في الزنى وهو الرجم وحكمت بأنَّ هذا القانون لو أقر فإنه سيفشل في مجال التطبيق ، وحسبك أن تعلم أن قانون الأحوال الشخصية الجديد الذي مسخ البقية الباقية من التعاليم الإسلامية في مجال الأسرة في تلك الدولة كانت هذه المرأة وراء إقراره كما صرحت هي نفسها في مقابلتها لتلك المجلة ، مما أحرج زوجها الرئيس إحراجاً شديداً ، جعله يأمر بجمع المجلة من الأسواق .

بقي أن تعلم أيها القارىء الكريم أن هذه المرأة توقفت عن الدراسة وهي في الثامنة من عمرها ، وبعد أن أصبح زوجها رئيساً ، وجاوزت الأربعين من عمرها هبطت عليها العبقرية فإذا بها تنطلق في مجال العلم كالصاروخ وإذا بها أستاذة جامعية تحضر للدكتوراة ، ولم تنس أن تحيي التراث الأدبي للشعب الذي تنتمي اليه والدتها ، ولم تنسَ أن ذلك الأدب له تأثير على الأدب العربي ، ولذا نرى رسالتها التي يعدها لها أساتذة متخصصون تدور حول أثر الشاعر الانكليزي « شيلي » في الأدب العربي . ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله .

أثر الخرافة في حياة الناس

في فندق « فليس إن » بمدينة « الاند » البريطانية توجد على احدى درجات سلم الفندق لطخة دم مضى على وجودها مئات السنين منذ أن جرت جريمة قتل هناك .

وتقول باربارا فورست زوجة مدير الفندق إن الأسطورة تقول : إن من يزيل بقعة الدم هذه يتسبب في موت أحد أفراد أسرته ، ولهذا ظلت بقعة الدم هذه في مكانها دون أن يجرؤ أحد على إزالتها .

ويأتي الزوار الى هذا الفندق لالقاء نظرة على « اللطخة اللعينة » ، كما أن العروسين يأتيان للجلوس فوق الدرجة الملطخة ليستجلبا الحظ .

وفي مدينة باريس دفعت فتاة جميلة في عام ١٩٣٧ أربعة عشر ألف جنيه لأحد العرافين ليكتب لها حجاباً يجعل حبيبها الثري يتزوجها ، ولكنَّ الحجاب لم يفعل شيئاً فرفعت شكوى ضد ذلك المحتال الى المحكمة ، وتذكر الجريدة أنه كانت تباع في باريس في عام ١٩٧٣ زجاجات تبعث على الأمل والابتهاج وتساعد على المحبة بمبلغ ثلاثة جنيهات ، ولم تكن الزجاجة تحتوي إلاَّ على بضع حبات من الفيتامين الذي يباع في الصيدليات بعشر المبلغ [١] .

وفي ضواحي مدينة بومباي في الهند انتشرت في عام ١٩٧٨ خرافة تقول : إنَّ

---

(١) « القبس » ١٠/١/٨١

غولة ذات ثلاثة رؤوس تطرق أبواب المساكن في الليل « ومن يفتح لها الباب يصاب بالسكتة القلبية، ويموت .

وتملك الخوف أبناء ضواحي بومباي ، فأسرعوا برسم صور الآلهة الهندوكية على الأبواب لمنع الغولة من الاقتراب من المنازل [1] .

وفي أندونيسيا في عام ١٩٧٩ ازدهرت تجارة جثث الموتى ، وقد وصل ثمن الجثة الواحدة الى حوالي (٨٠ ألف دولار) وقد أدى ارتفاع ثمن الجثث الى إقبال جماعات كبيرة على سرقتها من المقابر في مناطق مختلفة من البلاد .

ويعتقد بعض الناس أن اقتناء جثة سيمنحه الحظ السعيد ، ويبعد عنه الأعداء ، ويحميه من الرصاص والطعن بالسكاكين ، وتستخدم الجثة كذلك في استحضار بعض المواد التي يعتقد بعض الناس أنها ستمنحه طول العمر .

ويذكر أن أعلى الأسعار تدفع للجثث المدفونة حديثاً ، وتفضل أن تكون جثة رجل دين كنوع من التبرك ، ولتأثيرها الفعّال في تحقيق المراد.

وقالت مجلة « تمبو » الايطالية إن رجل الطب الصيني قد يقدم على شراء جثة بمبلغ يصل الى (٤٠) ألف دولار ، لاستخدامها في طقوس السحر الأسود .

وقد اشتبه البوليس الأندونيسي في رجل يحمل حزمة كبيرة ملفوفة بجلد خروف ، وقد أغمي على الشرطي الذي فتح الحزمة إذ كان بداخل الحزمة جثة مستخرجة حديثاً من القبر .

وأضافت « تمبو » أن البوليس قد أعاد الجثة الى ذويها ، ومنذ ذلك الحين بدأ أهالي الموتى يتناوبون في حراسة المقابر ليلاً خوفاً من اللصوص . وقد تمّ القاء القبض على عدد كبير من هؤلاء اللصوص [2] .

---

(١) جريدة « القبس » الكويتية ١٩/ ١/ ١٩٧٨

(٢) جريدة « القبس » الكويتية عدد ٢٤٩١ بتاريخ ٢٤/ ٤/ ٧٩

هذا الذي أوردناه يدلنا على مدى تأثير الخرافة في أذهان الناس ، وقد كانت الخرافة ولا تزال تسيطر على قطاعات كبيرة من البشر في القديم والحديث .

ما الذي جعل الناس يعبدون الأصنام والأشجار والأحجار والأشخاص ؟ ما ذلك إلاّ لأنهم اعتقدوا فيها عقائد فاسدة مجافية للحقيقة ، وبذلك طأطؤوا رؤ وسهم ورضوا بأن يقدموا أموالهم وأنفسهم ذوداً عن حياض تلك الآلهة التي لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً .

لقد أقدم شابٌّ في الهند على قطع لسانه بالموسى ثم وضعه عند قدمي الآلهة التي يعبدها ، آملاً بذلك أن ترفع الآلهة الفقر الذي يحيط به وبأسرته [1] .

ووقع رجلان موتى في مدينة (تنيس) الأمريكية بعد تناولهما مادة سامة ، بقي أن نعلم أن هذين ينتميان الى طائفة تدَّعي أنه بإمكان أفرادها عن طريق الايمان القوي أن يتعرضوا لأخطار هائلة بدون أن يصابوا بأذى ، كالتعرض لنار حام الأوكسيجين ، وتناول السموم ، والامساك بالأفاعي ، ولكنَّ الرواد الأوائل الذين أرادوا أن يكونوا قدوة للآخرين خروا موتى ، ولم يتحملوا ما تناولوه من سموم ، ولكنَّ أفراد الطائفة يزعمون أنهم سيقوّون إيمانهم للوصول الى الهدف المنشود[2] .

وفي عام ١٩٧٨ وصلت من دولة باكستان الى القاهرة مقصورة تتكون من قضبان من الفضة الخالصة المطلية بالذهب ، وقد بلغت تكاليف هذه المقصورة اكثر من مليوني دولار ، وقام بصنعها أمهر الفنانين ، وقد تفرغوا لهذا العمل أكثر من خمس عشرة سنة ، حتى جاءت آية في الفن والروعة والدقة العجيبة ، وأرسلت الحكومة المصرية طائرة خاصة لنقل هذه المقصورة من باكستان الى القاهرة ، وشكلت لجنة برئاسة نائب رئيس الوزراء حسن التهامي لتتولى الإشراف على نقل وتشييد هذه المقصورة ، وقد استغرقت عملية التشييد هذه اكثر من ثلاثة اشهر .

---

(١) جريدة « القبس » بتاريخ ١٤/ ١٢/ ٧٧

(٢) جريدة « الرأي العام » الكويتية ١٢/ ٣/ ٧٨

بقي أن نعلم أن كلّ هذه الجهود ، وكلّ تلك الأموال إنما كانت لنصب هذه المقصورة على قبر ، هو قبر السيدة زينب [1] .

هذه أحداث تدلك على خطورة الخرافة على العقول والقلوب والأبدان والأموال ، فكم من نفوس أزهقت ! وكم من أموال ضيعت ! وكم من حق رفض ! وكم من حرمات انتهكت بسبب انتشار الخرافة ، واعتقاد الناس بها .

إن المسلم عندما ينظر الى حال هؤلاء يحمد الله كثيراً على ما آتاه من علم ونور وبصيرة ، فبذلك عرف الأمور ، وقدر الأشياء قدرها ، إن القرن العشرين لم يخلص الناس من الخرافة والدجل والشعوذة حتى في أرقى دول العالم .

إن من واجب المسلم أن يحارب الخرافة ويكشف زيفها كي ينقذ الجاهلين من الضلالة ، ويخلص الضائعين من الحيرة . والله هو الموفق والهادي الى سواء السبيل .

---

(١) جريدة « القبس » الكويتية ٣١/ ١/ ١٩٧١

أعداء الإسلام ومخططاتهم

إلى الله نشكو أهل الممالك من أهل ملتنا

ماذا يملك أفذاذ الرجال الذين أعطاهم الله البصيرة والنور حينا يرون الحالة الأليمة التي تتردى فيها الأمة إلاً أن يتوجهوا الى ربهم بالشكوى ، ثمّ يجردوا ألسنتهم وأقلامهم لتبصير الناس وتوجيههم الوجهة الصحيحة .

هذا عالم فذٌ من علماء الأندلس يجأر بالشكوى إلى الله ، يشكو ملوك زمانه لانشغالهم بالدنيا عن الآخرة ، وبعمارة القصور عن عمارة الشريعة ، وبجمع المال عن حماية الديار .

وفي مثل هذا الجوّ يضعف الأخيار ويكثر الأشرار ، ويستشرف أعداء الإسلام الى السيادة والسلطان ، وهذا ما حدث عندما اتخذ بعض الملوك اليهود وزراء وعمالاً سلطوهم على رقاب المسلمين فاستأسدوا ، وضاروا المسلمين ، وتجرأ زعيمهم على كتابة كتاب يتهجم فيه على كتاب الله الكريم، ويزعم أنه متناقض، فكتب ابن حزم كتابه هذا [1] ، وبدأه بالشكوى :

« اللهمّ إنّا نشكو إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم ، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم اللازمة لهم في معادهم ودار قرارهم ، وبجمع أموال ربما كانت سبباً الى انقراض أعمارهم وعوناً

(١) كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودي . تحقيق د. إحسان عباس. نشر مكتبة دار العروبة ـ القاهرة ١٩٦٠ م .

لأعدائهم عليهم » عن حياطة ملتهم التي بها عزوا في عاجلتهم ، وبها يرجون الفوز في آجلتهم ، حتى استشرف لذلك أهل القلّة والذمّة ، وانطلقت ألسنة أهل الكفر والشرك بما لو حقق النظر أرباب الدنيا لاهتموا بذلك ضعف همنا ، لأنهم مشاركون لنا فيما يلزم الجميع من الامتعاض للديانة الزهراء والحميّة للملة الغراء ، ثمّ هم بعد مترددون بما يؤول إليه إهمال هذه الحال من فساد سياستهم والقدح في رياستهم فللأسباب أسباب ، وللمداخل الى البلاء أبواب ، والله أعلم بالصواب ، وقد قال علي بن العباس :

لا تحقرنَّ سُبَيّبا كم جرَّ أمراً سُبَيِّبُ

وقال أبو نصر بن نباتة :

فلا تحقرنَّ عدواً رماك وإن كان في ساعديه قصر
فإن السيوف تحزُّ الرقاب وتعجز عما تنال الأبر »[1]

لقد كان في المسلمين بقية خير ، فقد أثرت كتابات الأخيار فيهم ، وأثارت حميتهم قصائد الشعراء الذين بينوا مساوىء اليهود ، ومنها قصيدة أبي اسحاق الألبيري التي يقول فيها :

وإنّي احتللت بغرناطة فكنت أراهم عابثين
وقد قسموها وأعمالها فمنهم بكلّ مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها وأنتم لأوضاعها لابسون
وهم أمناكم على سركم وكيف يكون أميناً خؤون

وثار المسلمون وهبوا جميعاً في ثورة عارمة أودت بحياة أربعمائة مجرم يهودي منهم ابن النغريلة هذا الذي بلغ مرتبة الوزارة .

ما أشبه الليلة بالبارحة ، ومصاب اليوم أعظم ، فأهل الممالك في زماننا

---
(١) ص ٤٥ - ٤٦

أقاموا لليهود دولة في مسرى الرسولﷺ ، وباعوا الأرض المباركة بعرض حقير ، واعترف بعض هؤلاء بدولة أبناء القردة والخنازير ، واستقبلوهم في ديارهم ، ترى لو كان ابن حزم حياً ماذا يقول ، وماذا يكتب ؟ وتراه لو كتب أيحرك أشجان المسلمين ؟ إلى الله نشكو ولا حول ولا قوة إلاً بالله العظيم .

يستغلون الأحلام والرؤى

قد تقابل صديقاً أو قريباً فتراه حزيناً كئيباً ، فتسبر غور نفسه ، لتعرف سرّ كآبته وحزنه ، فتعجب أشد العجب عندما تعلم أن سبب ذلك رؤ يا مرعبة أو منذرة بخطر سيداهمه .

وقد تجده فرحاً منشرح الصدر ، باسم الثغر ، وما ذلك إلاّ لأنه رأى رؤ يا مفرحة أو مبشرة بحدث سار قادم .

وكانت الرؤ ى ولا زالت ذات تأثير لا على الأفراد العاديين فحسب ، بل وعلى النابغين والأذكياء ، وكم اقضت الرؤ ى مضاجع الجبابرة والملوك ! وكم شغلت شعباً بأكمله يوماً ما ، وما رؤ يا ملك مصر في عهد يوسف ببعيدة عن ذاكرتنا ، فقد رأى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، وكانت رؤ يا حق ، نفعت الناس نفعاً عظيماً ، عندما وجد الشخص الذي يحسن تفسيرها وتأويلها .

وكثير من الناس اليوم يبادرون بالتكذيب بالرؤ ى والأحلام ، ويزعمون أن الرؤ ى المنامية ليست الا انعكاسات لما يجول في فكر الانسان في حال يقظته ، وما يختزن في فكره الباطن ، فاذا ما استسلم للرقاد وطاف في أودية الكرى ، فإن عقله الباطن يعمل ، فيحقق المرء في نومه ما لم يستطع تحقيقه في عالم اليقظة .

ونحن لا ننكر أن قسماً كبيراً من الرؤ ى ليس إلا انعكاسات لأحاديث

النفس وخواطرها التي تمر بها في اليقظة ، ولكننا نرفض رفضاً قاطعاً أن تكون جميع الرؤ ى كذلك، ونقول إن هذا تحكم يعلم كذبه كل من تفكر في رؤ اه التي مرت به ، أو التي سمع الناس يروونها ويحدثون بها عن أنفسهم ، كيف بالله نفسر رؤ يا امرأة رأت وليدها يسقط من سطح منزل ، وفي الصباح يخرج فلا يعود ، لأن سيارة داهمته وأودت بحياته ؟! وكيف نفسر رؤ يا رجل يرى نفسه وقد سافر الى بلد وسكن منزلاً معيناً رأى في المنام معالمه ، فلا تمضي شهور حتى يكون في ذلك المنزل الذي رآه في منامه ؟!

وكيف نفسر رؤ يا رجل رأى انه سافر وتعطلت سيارته على صورة ما ، وينسى الرؤ يا ولا يذكرها الا حينما يرى المشهد الذي رآه في المنام حقيقة ماثلة ؟!. أذكر أن محمد أسد وهو كاتب يهودي اعتنق الإسلام حدث في كتابه (الطريق الى مكة) عن رؤ يا رآها قبل إسلامه وقام من منامه وسجلها ، وقد تحققت فيما بعد على الرغم من طولها وكثرة احداثها .

إذن ليس كل الرؤ ى انعكاسات لأحاديث النفس وخواطرها وهواجسها ، بل الأمر اعمق من ذلك .

والانسان ليس بمطيق بعقله وفكره أن يصل الى أعماق نفسه ، ففي النفس الانسانية مجاهيل يعجز الانسان عن الإحاطة بها ، على الرغم من أنها أقرب الأمور اليه .

والرؤ ى لها علاقة بالنفوس الإنسانية وفيها جانب غيبي لا يخضع للعلم المادي المبني على النظر والتأمل والبحث المادي .

وقد أغنانا الرسولﷺ عن اتعاب النفس في هذا الموضوع وقال لنا فيه الكلمة الحق ، وهي الكلمة الفصل التي لا نحتاج معها الى غيرها ، وذلك انها تمثل الحقيقة ، وتفسر الأمر تفسيراً يدرك الإنسان صدقه عندما ينظر الى رؤ اه ورؤ ى الناس في ضوء ما اخبر به المصطفىﷺ .

يقول الرسولﷺ في الحديث الذي يرويه ابن ماجة :

« الرؤ يا ثلاثة : منها تهاويل من الشيطان ليحزن ابن آدم » ومنها ما يهم به الرجل في يقظته فيراه في منامه ، ومنها جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » .

وفي الحديث الآخر عند الترمذي « الرؤيا ثلاثة : فبشرى من الله ، وحديث نفس ، وتخويف من الشيطان » [1] .

الذي قرره الرسولﷺ في الرؤ ى انها ثلاثة :

الأول : حديث النفس ، وهي التي أسماها العلماء الماديون بالانعكاسات النفسية ، وهي خواطر النفس وتطلعاتها التي تصبو الى تحقيقها في واقع الحياة ، فتراها في المنام » إذ تحلم بممارسة امور لم تستطع تحقيقها في واقع الحياة .

الثاني : رؤ يا لم يفكر بها صاحبها يوماً ولم تخطر على باله ، وهي بعيدة كل البعد عن تفكيره ، وقد يراها بصورة جلية لا تحتاج الى تفسير ولا الى تأويل ، وقد تكون أمثالاً مضروبة ، وأحداثاً مسبوكة ، تحتاج الى علم وتقدير وفهم ثاقب ونظر بعيد ، وما كل من رزق علماً رزق فهماً بتأويل الأحلام والرؤ ى .

وهذا النوع من الرؤ ى هو البقية الباقية من حقيقة النبوة ، فالوحي قد انقطع والنبوة قد ختمت ، ولم يبق الا هذه الرؤ ى وهي المبشرات ، يقول الرسول ﷺ : « لم يبق من النبوة الا المبشرات » . قالوا : وما المبشرات ؟ قال : الرؤ يا الصالحة . رواه البخاري .

وزاد مالك برواية عطاء بن يسار : « يراها الرجل المسلم أو ترى له » .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول اللهﷺ : « الرؤ يا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » متفق عليه [2] .

---

(١) صحيح الجامع : ٣/ ١٨٤ ـ ١٨٥

(٢) مشكاة المصابيح : ٢/ ٥٢٨

واذا كانت الرؤ يا من الرسول والأنبياء فهي حق لا تكذب ، بل هي وحي إلهي ، وقد بادر خليل الرحمن إبراهيم الى ذبح ولده عندما رأى في المنام انه يذبحه ، وما ذلك إلا لأن رؤ ياه وحي .

وغير الأنبياء تقع له الرؤ يا الحق وتكـون دلائل الصدق عليها بينة ، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم بأنها رؤ يا حق إلا إذا تحققت على النحو الذي رآه صاحبه في منامه .

لقد كان من أسباب افتتان بعض الناس ومتابعتهم لأولئك الـذين احتلـوا الحرم المكـي واعتصموا به تلك الرؤ ى التي رآها بعض الكبار والصغار والنساء والرجال ، وهي في جملتها تشير الى أن المدعو محمد عبدالله القحطاني هو المهدي الذي بشر به الرسـول ﷺ . وقـد تبـين للنـاس اليوم ان تلك الـرؤ ى لم تكن صادقة ، لأن ذلك الرجل ليس هو المهدي ، وإلا لو كان هو لم يقتل ، ولبقي حتى يمـلأ الأرض عدلاً كما ملئـت جوراً وظلماً ، فذلك من علاماتـه الثابتـة في الأحاديث . ولو كان فينا رسـول الله ﷺ لعرفنـا بالـرؤ يا الباطلـة إذا اشتبهـت الأمور ، أما ونحن لسنا بمعصومين فإن الرؤ ى تبقى في مجال الظن ولا ترقى الى اليقين والجزم ما لم تتمثل في واقع مشهود ، وعند ذلك يوافق الواقع الخبر .

لقد أوّل أبو بكر الصديق بين يدي الرسول ﷺ رؤ يا فبين له الرسول ﷺ أنه أصاب في تأويله وأخطأ . فمن يضمن لنا ألا نقع في الخطأ ، ومن يضمن لنا أن نصيب كبد الحقيقة .

قد يظن بعض الناس أن هناك نوعا من الرؤيا لا تحتاج الى تبين فهي عندهم صادقة ابداً ، وهي رؤ ية الرسول ﷺ في المنام ، نحن لا ننكر أن رؤ يا الرسول ﷺ حق وصدق ، فقد ثبت في الحديث المتفق عليه أن الرسول ﷺ قال : « من رآني في المنام فقد رآني ، فان الشيطان لا يتمثل في صورتي » وفي الحديث الآخر

المتفق عليه : « من رآني في المنام فسيراني في اليقظة ولا يتمثل الشيطان بي »[1]

ولكن ينبغي أن نعلم أن رؤ يا الرسولﷺ تكون حقاً اذا كانت الصورة المرئية له هي صورته الحقيقية التي كان عليها ، أما إذا رؤ ى بصورة غير صورته وزعمت الصورة المرئية أنها الرسول فالأمر ليس كذلك فالممنوع أن يتمثل الشيطان في الصورة الحقيقية للرسولﷺ ، أما أن يزعم الشيطان أنه الرسول وقد تمثل في صورة غير صورة الرسول فهذا أمر لم ينفه الحديث .

الثالث : النوع الثالث من الرؤ ى التي أخبر بها الرسولﷺ هي الرؤ يا التي يسببها الشيطان ، فالشيطان قد يمثل للانسان في منامه رؤيا مفزعة تبلبل خواطره ، وترهق نفسه ، وتجعله يجول في عوالم بعيدة حذراً متخوفاً » وفي الحديث : « الرؤ يا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا رأى احدكم ما يحب فلا يحدث به الا من يحب ، واذا رأى ما يكره فليتعوذ بالله من شرها ، وشر الشيطان ، وليتفل ثلاثاً ولا يحدث بها احداً ، فإنها لا تضره » متفق عليه[2] .

وقد جاء رجل الى الرسولﷺ فقال : « رأيت في المنام كأن رأسي قد قطع . قال : فضحك النبيﷺ ، وقال : « إذا لعب الشيطان بأحدكم في منامه فلا يحدث به الناس » رواه مسلم[3] .

والشيطان لديه القدرة على الوسوسة في صدور الناس ﴿ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ﴾ وفي الحديث ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم . فلديه القدرة على أن يمثل للنفس في منامها أموراً تفزعها وتحزنها .

استغلال الرؤيا والأحلام :

لا ضير على من يرى في منامه رؤ يا ، ولا ضير عليه اذا اجتهد في تفسيرها ،

---

(١) مشكاة المصابيح : ٥٢٨/٢

(٢) المصدر السابق : ٥٢٨/٢

(٣) المصدر السابق : ٥٢٩/٢

وإن كان عليه الا يبعد النجعة ولا يشغل فكرة في هذه الأمور شغلا يهدر وقته ، ويضيع طاقاته .

والذي يتوجه إليه اللوم والتحذير صنفان من الناس :

صنف تكون رؤ ياه تلاعباً شيطانياً ، فإذا بهذه الرؤ يا الشيطانية تفسر تفسيراً خاصاً ، لتوافق مخططاً يراد تنفيذه في واقع الحياة ، من قبل زعماء الكفر ، ودهاقنة الباطل ، والذين يلعبون بمقدرات الأمم والشعوب ، وهم يفسرون هذه الأحلام بهذه التفسيرات التي تخدم مصالحهم ، لتبدو وكأنها قدر إلهي لا يجوز مغالبته ولا منازعته .

والصنف الآخر : هم الذين لا يرون في المنام شيئاً ولكنهم يزعمون انهم رأوا رؤ يا ، وتكون مثل هذه الرؤ يا في العادة محبوكة حبكاً محكماً ، وتذاع بين الناس ، وتذاع تفسيراتها ، ثم يجتهد هؤلاء الطواغيت في تنفيذ مخططاتهم المدمرة ، فتأتي وفق الرؤ يا المزعومة ، وما هي برؤ يا وانما هي جزء من المؤ امرة ، للتغرير بالبسطاء ، الذين لم يبلغ فهمهم الى معرفة مكائد شياطين الجن والانس .

مثالان :

وسأضرب على هذا مثالين قد يكون أصحابهما من الصنف الأول أو الثاني ، نشرت جريدة « السياسة » الكويتية بتاريخ ١٢/ ١/ ١٩٨٠ أن حسن التهامي زعم أنه رأى الرسولﷺ في الحلم ، وأن الرسول أمره بأن يسعى للصلح بين العرب واليهود .

وحسبنا أن نعلم أن حسن التهامي كان في ذلك الوقت الذي زعم هذا الزعم نائبا للسادات ومستشارا له ، وكان يمهد للسفرة المشؤومة التي قام بها السادات الى القدس لتكون بداية رحلة الذل والهوان والتي أدت الى ما أدت اليه من مآس .

وحسبنا أن نعلم ان التهامي هو الذي تفاوض مع دايان ليمهد الطريق أمام سفر السادات كما ذكرت ذلك جريدة « السياسة » في عددها بتاريخ ١٦/ ١/ ١٩٨٠ ، إذن رؤيا التهامي هذه استغلال سيء « وهي اختلاق لا أساس له من الصحة » قصد به المساعدة في تحقيق أمر يسعى هو وآخرون الى تحقيقه ، وحسبنا أن نعلم ان هذه الرؤيا لو كانت حقا لكانت موافقة لتعاليم الاسلام لا مخالفة لها .

والحادثة الثانية هي تلك الرؤ يا التي رآها ثلاثة من كبار الحاخامات اليهود المعروفين بعلمهم في التصوف اليهودي ، رأوا في المنام في ليلة واحدة ان آخر معركة عظيمة على الأرض ستنشب في ابريل من هذا العام ، وهي التي ستبشر ببداية العصر الألفي السعيد الذي سيملك فيه المسيح الأرض .

وقالت بعض التقارير ان الحاخامات رأوا في منامهم ان المعركة بين يأجوج وماجوج تعجل في موضوع وقوع المذبحة النووية بين القوتين الكبيرتين .

وقالت تقارير اخرى عن هؤ لاء : ان المعركة الكبرى قد وقعت ، وان المسيح سيصل بطريقة سلمية .

ويستشهد احبار اليهود بالعلاقات التي تدل على قرب وصول المسيح والتي ظهرت في العام المنصرم ، وقالوا : ان وقع خطى المسيح كان مسموعاً في العام الماضي .

هذا مضمون الخبر الذي تناقلته وكالات الأنباء ، ونشرته عدة صحف في حينه (راجع جريدة « الوطن » الكويتية بتاريخ ٤/ ١/ ١٩٨٠) .

وكل من يعلم عقيدة اليهود وتطلعاتهم ومخططاتهم يعرف أن هذه الرؤ يا تكشف شيئاً من هذا كي تظهره في صورة أمر إلهي مقدر ، ان اليهود يخططون لحرب عالمية ثالثة يحكمون بعدها العالم ، وهم يفسرون بقايا المعلومات الدينية التي سلمت من التغيير تفسيراً يوافق تطلعاتهم ومخططاتهم كما هو ظاهر من تفسيرهم لحرب يأجوج ومأجوج فالرؤ يا المزعومة تجعل يأجوج أمة ومأجوج أمة

أخرى ، واليهود يكفرون بالمسيح عيسى بن مريم ويزعمون أن المسيح لم يبعث بعد ، وهم ينتظرون قدومه ، ليحكموا العالم به ولـذا يتبعـون المسيح الدجـال عندما يجتاح العالم ويتبعه من يهود أصبهان سبعون الفاً كما أخبر الرسولﷺ ، وما ذلك الا لظنهم أنه المسيح الموعود ملك اليهود المنتظر .

إن هذه الرؤ يا مقصود بها أن تمهد لأحداث تخطط لها يهود في الخفاء ، وهي مصاغة على هذا النحو كي تعطي اثراً معيناً عند من يقرأ الخبر ، والا فكيف يتسنى لثلاثة اشخاص في وقت واحد في ليلة واحدة أن يروا رؤ يا واحدة ذات مضمون واحد ؟

الرؤيا ليست تشريعاً :

الرؤ يا لا تعد تشريعـاً ، وبعض الأفـراد والجماعـات تجعـل من الـرؤ ى والتجليات والأفكار وأحاديث القلوب مصدراً تشريعياً ينافس القرآن والسنَّة ، وقد يقدم عليهما .

الرؤ يا الصادقة ما هي الا مبشر بأمر سار وقد تكون دعوة الى الاستقامة ، وقد تكون تثبيتاً على الحق ، وقد تنفر من الباطل ولكنها لا تشرع شيئاً جديداً ، وقد جادلني رجل كان يسير على بدعة لم يشرعها الله ، إذ كان يقوم على القبور بعد أن يدفن اصحابها ، ليلقن الميت حجته ، ويعرفه بما يجيب به رسل ربه ، جادلني هذا الرجل بأن هذا مشروع بدليل أنه رأى في منامه كيف يفعل بالميت منذ نزع الروح الى الدفن ، وكان هذا التلقين مما رآه يفعل ، فقلت له : ان ديننا تام كامل لا ينتظر شخصاً يكمله بالرؤ يا والمنام . وكيف يكون جوابك عندما يأتيك آخر يزعم أنه رأى خلاف ما رأيت ؟!

ومن الذي نتبعه أنت أم هو ؟ كلا لا نتبع الا خير الهدى هدى محمدﷺ .

أمريكي يمتطي ظهر مسلم

قد يظن القارىء انني اعني بالعنوان شيئاً آخر غير مدلوله الحقيقي ، ولكنَّ الأمر ليس كذلك ، فقد شاهدت بأم عيني أمريكياً يعتلي بقدمه ظهر رجل من هؤلاء الذين ينسبون إلى الإسلام ، كان ذلك في صيف عام ١٩٥٣ في مدينة طريف في السعودية ، وكنت ماراً من تلك المدينة متجهاً الى الرياض ، وتوقفنا هناك ريثما تختم الجوازات ويتم التفتيش ، وكان بجانب مبنى الجوازات مطار طريف وحطت طائرة يقودها طيار أمريكي ، وأخذ الطيار يحوم حول الطائرة وأحبَّ أن يتأكد من شيء ما مرتفع في الطائرة لا يستطيع أن يناله وهو واقف على قدميه ، فما كان منه إلا أن التفت الى الواقفين من العرب ، وكان هناك جمع كبير أكثرهم من سائقي السيارات الضخمة التي يعبرون بها الصحراء ، ثمَّ أشار هذا الطيار الى أحد هؤلاء السائقين يدعوه إليه ، ثمَّ أشار إليه بأن ينحني كهيئة الراكع ، ثم وقف على ظهره ليصل الى جناح الطائرة ، وبعد أن أنهى مهمته ذهب الى الطائرة وأعطى هذا الذي داس على ظهره بطيخة .

كثيراً ما تتراءى هذه الصورة في خيالي، ولم أدرك أبعاد هذا الموقف تمام الادراك آن ذاك ، فقد كنت صغيراً ، ولكنني تألمت في ذلك الحين ، وكلما امتد بي العمر وعدت بخيالي الى ذلك الموقف أتأمله يزداد عجبي ، عجبي من ذلة ذلك العربي المتسمي باسم من أسماء المسلمين كيف رضي أن يمتطى ظهره ، والمسلم يأنف أن يدوس ظهره مسلم مثله ، فكيف إذا كان الذي صعد على ظهره كافر

مشرك ، وإذا كان الانسان قد يقبل المذلة مرغماً ، فكيف قبلها هذا الرجل راضياً مختاراً ، فالأمريكي لم يجبره على الانحناء ، وإنما أشار إليه آمراً فاستجاب . والمرء قد يرضى بالمذلة إذا وقعت في السر ، وهذا قد أهانه في ملأ من الناس ، وهؤلاء الناس يعرفون هذا وسيضحكون منه في مجالسهم وسيسمعونه دهراً طويلاً ما يجعل وجهه يحمر خجلاً .

وأولئك الحاضرون لم يتحرك رجل منهم معترضاً صارخاً بهذا المهان : قف وارفع رأسك فما ينبغي أن تطأطىء رأسك إلاّ لله .

وكيف رضي ذلك الرجل أن يستلم البطيخة ثمناً لاذلاله وإهانته ، وكيف استطاع أن يذوقها ، ولكن :

من يهن يسهل الهوان عليه　　　ما لجرح بميت إيلام .

وكبرت ونظرت في حال أمة الإسلام فرأيت هذه الظاهرة منتشرة في كل مكان ، رأيت أمتي تنحني للطغاة الذين سفكوا دماءها ، وفتكوا بخيارها ، وامتصوا خيراتها ، ودنسوا مقدساتها ، رأيت أعداء الإسلام يدوسون فوق جباهنا ومع ذلك نجد في هذه الأمة من يسبح بحمدهم ، ويدعوهم الأخوة والأحبة ، ورأيت من هذه الأمة من يرضى بالهوان ، ثمّ يأخذ بدلاً منه شارة يعلقها على صدره ، أو جائزة يظن الغبي أنها أعطيت له من أجل عبقريته ، وإنما مثله كمثل صاحب البطيخة نالها بما ناله من ذل وهوان .

ماذا فعلت بنا بريطانيا في مصر وفي الأردن وفي فلسطين ؟! وماذا فعلت بنا فرنسا في سوريا وفي الجزائر ؟ وماذا فعلت بنا أسلحة امريكا وأموالها التي زودت بها اسرائيل ؟!

وانظر الى احترام دولنا ورجال هذه الأمة لأبناء هذه الأمم الظالمة ، التي لم ترعَ لنا حرمة ، ولم توقر منا احداً ، انظر الى أموال المسلمين كيف تجري أنهاراً الى بنوك وشركات دول الظلم هذه ، وانظر الى رجالات هذه الدول كيف يسرحون

ويمرحون في ديار المسلمين اعزة مكرمين .

لقد أثلج صدري موقف ذلك الأستاذ الشيخ عندما زار رجل بريطاني مدرسته ودخل حجرة المدرسين وقام المدرسون يصافحونه رفض الشيخ القيام ، وعجب الضيف الزائر من هذا الجفاء ، فقال له الشيخ : أنت وقومك الذين احتللتم ديارنا ، وأخذتم خيراتنا ، ومكنتم لليهود في هذه البلاد ، فكيف تريدني أن أوقر من فعل بنا هذه الأفاعيل ؟!

ولقد بلغ الحال بهذه الأمة أن ترضى معانقة أبناء القردة والخنازير الذين لعنهم الله في محكم التنزيل ، رضوا بأن تمتطي يهود ظهورنا ، باسم الأخوة والسلام ، إننا لن نفقه معنى العزة والكرامة إلا إذا فقهنا قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (١) .

(١) سورة المنافقون : ٨

كيف أكل لحم الكلب

من طرق التربية الناجحة أن تأخذ من تريد تربيته بالأمور السهلة في العلم والعبادة ثمّ تتدرج به حتى يصل الى المراتب العالية .

ومن طرق الاضلال التي يلجأ اليها شياطين الجن والإنس أن يأخذوا العباد بصغائر الذنوب فإذا هانت عليهم انحدروا بهم ، ولا يزالون بهم يهونون عليهم الذنب حتى يوصلوهم الى الدرك الأسفل .

إن الذنب الأول يحدث شرخاً في النفس الإنسانية الصالحة ، وإنما يكون صلاح هذا الصدع بالتوبة والاستغفار ، وبذلك يصقل القلب ، ويزول أثر الشيطان ، وإذا لم يبادر العبد الى ذلك فإن الشرخ يتسع ، ويصعب علاجه . وخير من التوبة أن يقف العبد عند العمل الأول بل عند القصد الأول ، فإن كان قصده لله مضى ، وإن كان لغير الله ، أو غير موافق لشرع الله توقف .

ويذكرني هذا المعنى بما سمعته من عجوز كانت تحكي لنا قصة عدوّ من أعداء الإسلام أراد أن يغوي عبداً من عباد الله الذين ينتسبون الى الإسلام ، فقد طلب ذلك الخبيث من ذلك الرجل أن يحضر له كلباً فلما أبى وتمنع هوّن عليه الأمر وأغراه بالمال ، وقال له : ما الذي ينقص من دينك وإيمانك إذا أحضرت لي كلباً ، وأي إثم عليك في ذلك ، وهذا مال تستعين به على حاجتك.

وعندما أحضر له الكلب أراد منه أن يذبحه فثار وأرغى وأزبد وتعلل بأن الله

حرّم عليه ذلك ، فما زال يغريه بالمال حتى استجاب ، ولم يجد صعوبة في اقناعه بطبخه بعد تقطيعه ، وقد جعله المال الوفير الذي وضع في حجره يرضى بأن يتناول قطعة من ذلك الكلب المطبوخ لتكون غذاء له .

لقد أغواه بالدنيا ، ولكنه تدرج به حتى وصل به الى المعصية الموبقة ، وهكذا شياطين الكفر من المشركين واليهود والصليبيين وغيرهم وهم يبذلون جهودهم غير المباركة في إضلال المسلمين ، زينوا لهم صغائر الأمور ولا يزالون يهونون عليهم عظائم الأمور حتى يتدنسوا بالأقذار ، بل ألفوا هذه الأقذار ، والا فكيف أكل المسلمون الربا وتعاملوا به ! وكيف رضي المسلمون بخروج نسائهم وبناتهم كاسيات عاريات ! وكيف اتخذوا أعداءهم أولياء ! وصدق الله اذ يقول : ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ﴾[1] .

---

(١) سورة الصف : ٥

مخطط لإبادة دعاة الإسلام

في سنة ١٩٦٦ تسربت وثيقة خطيرة خطط واضعوها لمحاربة الإسلام ، والقضاء على دعاته ، وقد أثبتت الأحداث التي جرت بعد ذلك ، والتي سارت وفق المخطط الذي تضمنته هذه الوثيقة ـ أن هذه الوثيقة غير مزورة ولا مكذوبة .

لقد زجّ بآلاف من شباب الإسلام في السجون ، وعلق عشرات منهم على أعواد المشانق ، وأزهق الرصاص والتعذيب أرواح المئات ، ولم تسلم الفتيات المسلمات من بطش الظالمين .

ولكنّ أحلام الظالمين على الرغم من ذلك كلّه لم تتحقق ، وباؤ وا بخزي الدنيا والآخرة ، تصور الظالمون أن دعوة الإسلام ستتوقف من جراء المحنة والبلاء ، فإذا بالدعوة تضرب جذورها في الأرض ، وترتفع بسوقها إلى السماء ، وتورق ، وتزهر ، وتثمر ، والله ناصر دنيه ، ومؤ يد من رفع راية الإسلام.

والوثيقة التي ننشرها هنا هي نص المحضر الرسمي الذي انتهت به عشرة اجتماعات متتالية للجنة العليا المشكلة بأمر الرئيس في ذلك الوقت لبحث أفضل الطرق للقضاء على الدعوة الإسلامية في ذلك البلد المسلم ، وقد تكونت اللجنة من رئيس الوزراء وقادة المخابرات والمباحث ومدير مكتب المشير ، وإليك النص الحرفي الذي رفعته اللجنة المذكورة الى رئيس الجمهورية ووافق عليه :

« بناء على أمر السيد رئيس الجمهورية بتشكيل لجنة عليا لدراسة واستعراض الوسائل التي استعملت والنتائج التي تم الوصول اليها بخصوص

مكافحة جماعة الاخوان المسلمين المنحلة ولوضع برنامج لأفضل الطرق التي يجب استعمالها في قسمي مكافحة الاخوان بالمخابرات والمباحث العامة لبلوغ هدفين :

١ ـ غسل مخ الإخوان من أفكارهم .

٢ ـ منع عدوى أفكارهم من الانتقال لغيرهم .

اجتمعت اللجنة ، وعقدت عشرة اجتماعات متتالية . وبعد دراسة كل التقارير والبيانات والاحصائيات السابقة أمكن تلخيص المعلومات المجتمعة في الآتي :

١ ـ تبين ان تدريس التاريخ الإسلامي في المدارس للنشء بحالته القديمة يربط السياسة بالدين في لا شعور كثير من التلاميذ منذ الصغر ويسهل تتابع ظهور معتنقي الأفكار ـ الإخوانية .

٢ ـ صعوبة واستحالة التمييز بين أصحاب الميول والنزعات الدينية وبين معتنقي الأفكار الإخوانية وسهولة تحول الفئة الأولى الى الثانية بتطرف أكبر فجأة .

٣ ـ غالبية أفراد الإخوان عاش على وهم الطهارة [١] ولم يمارس الحياة الاجتماعية الحديثة ويمكن اعتبارهم من هذه الناحية « خام » .

٤ ـ غالبيتهم ذوو طاقة فكرية وقدرة تحمل ومثابرة كبيرة على العمل ، وقد أدى ذلك الى اضطراد دائم وملموس في تفوقهم في المجالات العلمية والعملية التي يعيشون فيها وفي مستواهم العلمي والفكري والاجتماعي بالنسبة لأندادهم على الرغم أن جزءاً غير بسيط من وقتهم موجه لنشاطهم الخاص بدعوتهم المشؤومة .

٥ ـ هناك انعكاسات ايجابية سريعة تظهر عند تحرك كل منهم للعمل في المحيط الذي يقتنع به .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وما نقموا منهم إلاّ أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ﴾ .

٦ ـ دوام اتصال بعضهم ببعض وتزاورهم والتعارف الدائم فيما بينهم يؤدي لى ثقة كل منهم في الآخر ثقة كبيرة .

٧ ـ هناك توافق روحي وتقارب فكري وسلوكي يجمع بينهم في كل مكان حتى ولو لم تكن هناك صلة بينهم .

٨ ـ على رغم كل المحاولات التي بذلت سنة ١٩٣٦ لإفهام العامة والخاصة بأنهم يتسترون خلف الدين لبلوغ أهداف سياسية إلا أن احتكاكهم الفردي بالشعب يؤدي الى محو هذه الفكرة عنهم على الرغم من انها بقيت بالنسبة لبعض زعمائهم .

٩ ـ تزعمهم حروب العصابات في فلسطين سنة ١٩٤٨ والقنال ١٩٥١ رسب في أفكار الناس صورهم كأصحاب بطولات وطنية عملية وليست دعائية فقط بجوار أن الأطماع الإسرائيلية والاستعمارية والشيوعية في المنطقة لا تخفي أغراضها في القضاء عليهم .

١٠ ـ نفورهم من كل من يعادي فكرتهم جعلهم لا يرتبطون بأية سياسة خارجية سواء عربية أو شيوعية أو استعمارية وهذا يوحي لمن ينظر لماضيهم بأنهم ليسوا عملاء وبناء على ذلك رأت اللجنة أن الأسلوب الجديد في المكافحة يجب أن يشمل أساساً بندين متداخلين وهما :

١ ـ محو فكرة ارتباط السياسة بالدين الإسلامي .

٢ ـ إبادة تدريجية بطيئة مادية ومعنوية وفكرية للجيل القائم فعلاً والموجود من معتنقي الفكرة ويمكن تلخيص أسس الأسلوب الذي يجب استخدامه لبلوغ هذين الهدفين في الآتي :

أولاً ـ سياسة وقائية عامة :

١ ـ تغيير مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين في المدارس وربطها

بالمعتقدات ـ الاشتراكية كأوضاع اجتماعية واقتصادية وليست سياسية مع ابراز مفاسد الخلافة وخاصة زمن العثمانيين وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وإقصائها عن السياسة [1] .

٢ ـ التحري الدقيق عن رسائل وكتب ونشرات ومقالات الإخوان في كل مكان ثم مصادرتها وإعدامها .

٣ ـ يحرم بتاتاً قبول ذوي الإخوان وأقربائهم حتى الدرجة الثالثة من القرابة من الانخراط في السلك العسكري أو البوليسي أو السياسي مع سرعة عزل الموجودين من هؤلاء الأقرباء في هذه الأماكن أو نقلهم الى أماكن أخرى في حالة ثبوت ولائهم .

٤ ـ مضاعفة الجهود المبذولة في سياسة العمل الدائم على فقدان الثقة بينهم وتحطيم وحدتهم بشتى الوسائل ، وخاصة عن طريق إكراه بعضهم على كتابة تقارير عن زملائهم بخطهم ، ثم مواجهة الآخرين بها مع العمل على منع كل من الطرفين من لقاء الآخر أطول فترة ممكنة لتزيد شقة انعدام الثقة بينهم .

٥ ـ بعد دراسة عميقة لموضوع المتدينين من غير الإخوان وهم الذين يمثلون الاحتياطي لهم ـ وجد أنَّ هناك حتمية طبيعية عملية لالتقاء الصنفين في المدى الطويل ، ووجد أن الأفضل أن يبادؤوا بتوحيد معاملتهم بمعاملة الإخوان قبل أن يفاجئونا كالعادة باتحادهم معهم علينا[2] . ومع افتراض احتمال كبير لوجود أبرياء كثيرين منهم إلا أن التضحية بهم خيرٌ من التضحية بالثورة في يوم ما على أيديهم ولصعوبة واستحالة التمييز بين الإخوان والمتدينين بوجه عام فلا بد من وضع الجميع ضمن فئة واحدة ومراعاة ما يلي معهم : ـ

---

(١) صدر قرار جمهوري نشر في جريدة « الأهرام » في عددها الصادر في أول يونيو ١٩٦٦ ـ بأمر بتغيير مناهج تدريس الدين والتاريخ الاسلامي .

(٢) شملت الاعتقالات اعضاء الجمعيات الاسلامية الأخرى فعلاً .

أ ـ تضييق فرص الظهور والعمل أمام المتدينين عموماً في المجالات العلمية والعملية .

ب ـ محاسبتهم بشدة وباستمرار على أي لقاء فردي أو زيارات أو اجتماعات تحدث بينهم .

ج ـ عزل المتدينين عموماً عن أي تنظيم أو اتحاد شعبي أو حكومي أو اجتماعي أو طلابي أو عمالي أو إعلامي .

د ـ التوقف عن السياسة السابقة في السماح لأي متدين بالسفر للخارج للدراسة أو العمل حيث فشلت هذه السياسة في تطوير معتقداتهم وسلوكهم وعدد بسيط جداً منهم هو الذي تجاوب مع الحياة الأوروبية في البلاد التي سافروا اليها . أما غالبيتهم فإن من هبط منهم في مكان بدأ ينظم فيه الاتصالات والصلوات الجماعية أو المحاضرات لنشر أفكارهم .

و ـ التوقف عن سياسة استعمال المتدينين في حرب الشيوعيين واستعمال الشيوعيين في حربهم بغرض القضاء على الفئتين حيث ثبت تفوق المتدينين في هذا المجال ولذلك يجب ان تعطي الفرصة للشيوعيين لحربهم وحرب أفكارهم ومعتقداتهم مع حرمان المتدينين من الأماكن الاعلامية(1) .

٦ ـ تشويش الفكرة الموجودة عن الإخوان في حرب فلسطين والقنال وتكرار النشر بالتلميح والتصريح عن اتصال الإنجليز بالهضيبي وقيادة الإخوان حتى يمكن غرس فكرة انهم عملاء للاستعمار في ذهن الجميع .

٧ ـ الاستمرار في سياسة محاولة الايقاع بين الإخوان المقيمين في الخارج وبين الحكومات العربية المختلفة وخاصة في الدول الرجعية الإسلامية المرتبطة بالغرب وذلك بأن يروج عنهم في تلك الدول انهم عناصر مخربة ومعادية لهم وبأنهم يضرون بمصالحها وبهذا تسهل محاصرتهم في الخارج ايضاً .

(1) تولى الشيوعيون فعلاً اجهزة الاعلام في ذلك الوقت .

ثانياً ـ سياسة استئصال السرطان الموجود الآن :

بالنسبة للإخوان الذين اعتقلوا أو سجنوا في أي عهد من العهود يعتبرون جميعاً قد تمكنت منهم الفكرة كما يتمكن السرطان من الجسم ولا يرجى شفاؤه ولذا تجرى عملية استئصالهم كالآتي : ـ

المرحلة الأولى :

إدخالهم في سلسلة متصلة متداخلة من المتاعب تبدأ بالاستيلاء أو وضع الحراسة على أموالهم وممتلكاتهم ويتبع ذلك اعتقالهم . وأثناء الاعتقال يستعمل معهم أشد أنواع الاهانة والعنف والتعذيب على مستوى فردي ودوري حتى يصيب الدور الجميع ثم يعاد ، وهكذا وفي نفس الوقت لا يتوقف التكدير على المستوى الجماعي ، بل يكون ملازماً للتأديب الفردي .

وهذه المرحلة إن نفذت بدقة ستؤدي الى ما يأتي :

بالنسبة للمعتقلين :

اهتزاز المثل والأفكار في عقولهم وانتشار الاضطرابات العصبية والنفسية والعاهات والأمراض فيهم .

بالنسبة لنسائهم :

سواء كن زوجات أو أخوات أو بنات فسوف يتحررن ويتمردن بغياب عائلهم . وحاجتهن المادية قد تؤدي الى انزلاقهن .

بالنسبة للأولاد :

تضطر العائلات لغياب العائل وحاجتهم المادية الى توقيف الأبناء عن الدراسة وتوجيههم للحرف والمهن وبذلك يخلو جيل الموجهين المتعلم القادم ممن في نفوسهم حقد أو ثأر أو آثار من أفكار آبائهم .

المرحلة الثانية :

إعدام كل من ينظر اليه بينهم كداعية ومن تظهر عليه الصلابة سواء داخل السجون والمعتقلات أو بالمحاكمات[1] ثم الافراج عن الباقي على دفعات مع عمل الدعاية اللازمة لانتشار أنباء العفو عنهم حتى يكون ذلك سلاحا يمكن استعماله ضدهم من جديد في حالة الرغبة في العودة الى اعتقالهم حيث يتهمون بأي تدبير ، ويوصفون حين ذلك بالجحود المتكرر لفضل العفو عنهم .

وهذه المرحلة إن أحسن تنفيذها باشتراكها مع المرحلة السابقة ستكون النتائج كما يلي :

١ ـ يخرج المعفو عنه الى الحياة فإن كان طالباً فقد تأخر عن أقرانه . ويمكن أن يفصل من دراسته ويحرم من متابعة تعليمه .

٢ ـ إن كان موظفاً أو عاملاً فقد تقدم زملاؤه وترقوا وهو قابع مكانه ، ويمكن أيضاً أن يحرم من العودة الى وظيفته أو عمله .

٣ ـ إن كان تاجراً فقد أفلست تجارته ويمكن أن يحرم من مزاولة تجارته .

٤ ـ ان كان مزارعا فلن يجد أرضا يزرعها حيث وضعت تحت الحراسة أو صدر بها قرار استيلاء [2] .

وسوف تشترك جميع الفئات المعفو عنها في الآتي :

١ ـ الضعف الجسماني والصحي والسعي المستمر خلف العلاج والشعور المستمر بالضعف المانع من اية مقاومة .

٢ ـ الشعور العميق بالنكبات التي جرتها عليهم دعوة الاخوان وكراهية الفكرة والنقمة عليها.

(١) ولذلك اعدم الداعية الاسلامي سيد قطب رحمه الله ، ومجموعة من رفاقه .
(٢) صدر قرار بوضع اموال المعتقلين في ذلك الوقت تحت الحراسة .

٣ ـ عدم ثقة كل منهم في الآخر وهي نقطة لها اهميتها في انعزالهم عن المجتمع وانطوائهم على انفسهم.

٤ ـ خروجهم بعائلاتهم من مستوى اجتماعي إلى مستوى أقل نتيجة لعوامل الافقار التي احيطت بهم.

٥ ـ تمرد نسائهم وثورتهن على تقاليدهم وفي هذا إذلال فكري ومعنوي لكون سلوك النساء في بيوتهن يخالف افكارهم وتبعاً للضعف الجسماني والمادي لا يمكنهم الاعتراض.

٦ ـ كثرة الديون عليهم نتيجة لتوقف ايراداتهم واستمرار مصروفات عائلاتهم.

النتائج الجانبية لهذه السياسة هي:

١ ـ الضباط والجنود الذين يقومون بتنفيذ هذه السياسة سواء من الجيش أو البوليس سيعتبرون فئة جديدة ارتبط مصيرها بمصير هذا الحكم القائم حيث سيشعر كل منهم عقب التنفيذ انه في حاجة الى هذا الحكم ليحميه من أي عمل انتقامي قد يقوم به الاخوان كثأر.

٢ ـ اثارة الرعب في نفس كل من تسول له نفسه القيام بمعارضة فكرية للحكم القائم.

٣ ـ وجود الشعور الدائم بأن المخابرات تشعر بكل صغيرة وكبيرة وأن المعارضين لن يستتروا وسيكون مصيرهم أسوأ مصير.

٤ ـ محو فكرة ارتباط السياسة بالدين الاسلامي [١].

---

(١) لا شك أن الذين خططوا هذا كله قد رضعوه من شياطين الكفر من الجن والإنس، فهم يقمعون على الفضيلة وينشرون الرذيلة، ولكنهم ﴿ يمكرون ويمكر الله والله خيراً الماكرين ﴾ و ﴿ العاقبة للمتقين ﴾.

مخطط لحرب الإسلام

وهذه وثيقة نشرت في جريدة الوطن الكويتية، وهذه الوثيقة تقرير رفع إلى رئيس الدولة، وعلى الرغم من مرور خمسة عشر عاما على وضع المخطط الأول الذي تضمنته الوثيقة السابقة، وعلى الرغم من اختلاف شخص الحاكم - فقد استمرت الحرب ضد الإسلام، والخطة بقيت متقاربة في محتواها.

نص التقرير:

عرض تقرير للوسائل التي استعملت والنتائج التي تم الوصول إليها بخصوص مكافحة الإخوان المسلمين في السابق، ومتابعة الجمعيات الدينية مثل: أنصار السنة، عباد الرحمن، التبليغ، شباب محمد، الجمعية الشرعية، حزب التحرير والجمعيات الاسلامية بالكليات الجامعية والمعاهد والمدارس وأئمة المساجد المشهورين من ذوي الشعبية الملموسة. وقال التقرير إن التركيز يجب أن يكون على مكافحة الإخوان المسلمين حيث أنهم تحولوا من جماعة دينية إلى مدرسة فكرية أممية تتحرك بلا مركزية. وتضحي ببعض العناصر المكشوفة للظهور العلني بينما تترك باقي الافراد للتحرك السري.

وحذرت اللجنة من ان الثورة الدينية التي تزعمها الامام اية الله الخميني قد استخدمت الاساليب نفسها ومنها خطة الهضيبي التي اجهضتها السلطات المصرية عام ١٩٥٤.

واشار التقرير ان خطورة هذه الخطة تظهر في تأثيرها على صفوف رجال

الشرطة والجيش والاعلام والسياسة وشلها تحت التأثير الايديولوجي للدين والارهاب النفسي من معارضة الأفكار الدينية.

وأقرت اللجنة في تقريرها مجموعة من الوسائل لمكافحة نشاط الحركات الاسلامية وتطويق الأمور حتى لا تتكرر التجربة الايرانية في مصر ومنها:

١ ـ إعادة النظر في مناهج تدريس التاريخ الإسلامي والدين عامة في المدارس والعمل على تغيير هذه المناهج لربط الدين بالأوضاع الاجتماعية والخلقية. وفصله عن السياسة فصلا تاما. مع ابراز مفاسد الخلافة وخاصة زمن العثمانيين وتقدم الغرب السريع عقب هزيمة الكنيسة وانفصالها عن السياسة.

٢ ـ التحري الدقيق عن الآباء الروحيين المعاصرين للأفكار الإسلامية وتشويه سمعتهم.

٣ ـ تحريك قضايا التطرف الديني من وقت لآخر. وتسليط الأضواء عليها إعلامياً مع تشجيع غلاة المتطرفين بعد القبض عليهم وتصعيد الغرور فيهم حتى تكون تصريحاتهم المتزمتة مادة لاجهزة الاعلام لاثارة الجمهور عليهم بدلاً من التعاطف معهم. ثم ربط هذه القضايا بالعمالة لبعض دول الرفض المتطرفة مثل ليبيا والعراق.

٤ ـ تحريض بعض زعمائهم من الشباب في الجامعة بطرق غير مباشرة وتيسير حصولهم على الاسلحة والمفرقعات المحدودة لتصفية بعض العناصر غير المرغوب فيها على غرار قضية الشيخ الذهبي ثم التخلص منهم باحكام قاسية تكون عبرة لغيرهم، مع العمل على تصعيد استعمال تعبير (جماعة التكفير).

٥ ـ التركيز على العناصر النسائية بالجامعة وبالوظائف العامة لمحاربة أفكار الجماعات الإسلامية وأعضاء الاتحاد حيث أن علاقة الطالبات بالطلبة بالجامعة والمعاهد لها دفع عاطفي ومن الواضح أن العناصر النسائية تخشى الكثير من تطبيق

١٤ ـ التركيز على عدم تلاؤم النظرية الاجتماعية الإسلامية مع العصر.

١٥ ـ الاهتمام باستمرار بالاسراع في سياسة تطوير الأزهر إلى جامعة كلاسيكية حتى يتوقف سيل الخريجيين من محترفي الدين وتسليط الاضواء الاعلامية على مجددي ومصوري الدين مثل طه حسين وأشباهه.

١٦ ـ توجيه رئاسة مجلس الشعب للتعاطف مع الأفكار الإسلامية من ناحية القوانين الخلقية والجنائية علنا مع اعطاء التعليمات للجان المسؤولة بوقف أي مشروع يحال إليها بهذا الخصوص وعرقلته.

وتحدث التقرير عن زعيم الاخوان المسلمين عمر التلمساني وقال على الرغم من تجاوزه الـ ٧٥ عاما وضعف صحته غير انه يجب عدم الاستهانة به . واوصى بعدم التعرض له أو القبض عليه لأي سبب ، لأن ذلك قد يثير مشاكل نائمة بل استنفاذ طاقته بمناقشات ولقاءات دائمة مع المسؤولين .

وذكرت المصادر نفسها أن التقرير شفع بملاحظات أوردها كل من خبير الشؤ ون الاسلامية في السفارة الاميركية بالقاهرة. ومستشار مساعد مناحيم بيغن المتخصص بالقضايا الاسلامية . وقالت ان الاقتراحات تركزت على ضرورة الاستعانة بالعناصر القبطية في المراكز الحساسة بالاضافة إلى تدريب جماعات احتياطية من هؤلاء لقمع أعمال الشغب والعنف.

وأوصت كذلك بضرورة الاستعانة بأعضاء نوادي الروتاري واللاينز ومنحهم مزيدا من التسهيلات والرعاية حيث ان اهم مبادئهم : «الدين لله والوطن للجميع».

مخطط شيوعي لحرب الإسلام

نشرت جريدة الرأي العام الكويتية بتاريخ ٨/٦/١٩٧٩ ملخصا لخطاب حاكم أفغنستان في اجتماع حضره مائتا عضو من الأعضاء الشيوعيين المسؤ ولين من حزب خلق وبرجم، والذي حصل على التقرير ولخصه حركة الخلافة الإسلامية النورستانية، وقد حرصنا أن نضمن كتابنا هذا أمثال هذا الخطاب لنعلم كيف يفكر الشيوعيون، وكشف أسرار هؤ لاء وخططهم يبطل كيدهم، ويكشف خداعهم لمن خفي عليه أمرهم.

يقول الرئيس الشيوعي في خطابه:

سيداتي وسادتي:

عليكم ان تعرفوا الأحزاب المعارضة للشيوعية الماركسية، وأن تستخدموا ضدها الوسائل التي بينها السيد ماركس.. وأقول بصراحة إن أهم العوائق وأضرها لتوسيع رقعة الشيوعية.. هي الإسلام أولا، والرأسمالية والملكية ثانيا.

أيها الاخوة :

انتم المثقفون أبناء الشيوعية في أفغانستان، فعليكم أن تستخدموا العوامل المؤ ثرة ضد الإسلام والمسلمين كما أن السيد لينين والسيد ماركس قالا في تعاليمهما إن توسيع رقعة الشيوعية تكون باستخدام الطرق المؤ ثرة ضد الإسلام والمسلمين.

ومن المسائل المهمة استخدام العوامل المؤثرة ضد العدو والظفر عليه وإذا أردتم أن تداوموا العدوان ضد الإسلام والمسلمين فعليكم أن تعرفوا العوامل التي

تفيدكم والتي لا تفيدكم . واطلب منكم أن تستخدموا على الفور العوامل الموضحة الآتية :

١ ـ القوة السياسية والنظامية .

٢ ـ العلماء الذين لهم اتجاهات شيوعية .

٣ ـ جهالة العوام ، وغربتهم ، وتعصباتهم القومية ، واللغوية .

٤ ـ الجوانب الرديئة من الاعتداءات السابقة .

٥ ـ نصرة الشقيقة روسيا .

٦ ـ غير ذلك من العوامل المفيدة .

والعوائق التي هي ضد الشيوعية في افغانستان ما يلي :

١ ـ الاسلام .

٢ ـ الملكية الفردية والرأسمالية .

٣ ـ العوام .

٤ ـ محو الوطن والحرية .

وسأحدثكم بمعلومات لازمة عن هذه العوائق .

ومن المعلوم أن أهم مزاياها وأولها اخراج الإسلام من البلاد لأن الشيوعية قائمة على فلسفتها المادية . ومن أساس الشيوعية أن تنكر الدين وهي في فلسفتها تتصور أزلية المادة وأبديتها ، وأيضاً تعتقد أن المادة ليس لها خالق ولا هي زائلة ، وتعتقد أن ليس للدنيا وما حولها خالق .

ومن أهم فرائضها اخراج الإسلام من قلوب المسلمين جميعا رجالا كانوا أو نساء ، صغارا كانوا أو كبارا . ولكن هذا أمر صعب .

ولهذا الأمر عوامل صعبة وتجارب ، إن استخدمنا هذه العوامل والتجارب سننجح وهي :

إظهار الإسلام ومدحة قولا ، واستئصاله فعلا ، وعليكم أن تعملوا ضد الإسلام والمسلمين طبقا لقانون الشيوعيين ، وسأطلب لكم دستور العمل من

روسيا، وسنستخدم العوامل التي يرشدنا بها قواد روسيا لأنهم مثقفون بتعاليم لينين وماركس ولأننا أخذناها منهم، وهم أرشدونا أن نعلن الإسلام قولا، وأن نخرجه من البلاد عنوة.

وقد استخدمنا لتحقيق هذه المهمة كل وسائل الاعلام من الراديو والتلفزيون والجرائد وغير ذلك، وسنوضح جملة منها:

١ - نقول نحن المسلمين وابناء المسلمين، نحترم الإسلام وشعائره وأهله، ونحن حزب الشيوعية المسلمة، لأجل ذلك زدنا تلاوة القرآن في برامج الاذاعة، لكن نحرق القرآن ونجعله تحت أقدامنا عملا، ومعلوم من دستورنا الأساسي انا لن نلحق أحدا في حزبنا الشيوعي إلا بعد فترة تعليم واختبار بان يجعل القرآن تحت قدميه.

٢ - نعلن بالراديو أن الدين الإسلامي دين مقدس ونحن محافظون عليه ولكن نخرج من البلاد العلماء الذين يعتنقون الإسلام بالقبض والحبس والإعدام ونعلم في الكليات والجامعات أن تعاليم الشيوعية ضد تعاليم الإسلام ونسعى لأن نمنع لغة القرآن عن الجامعات والكليات والمدارس كي ينقطع تعليم الإسلام وأفكاره عن النسل الآتي.

٣ - نفتتح حفلاتنا بالقرآن. ونهدم المساجد والمآذن والمنابر التي تعلو أصوات القرآن منها بالقنابل.

٤ - نطلق اسم الإسلام بالافواه، ولكن نعمل على الارهاب الذي يستمر رعبه في قلوب الناس فترة من الزمن، فعليكم أن تداوموا على الارهاب في البلاد والمدن والقرى والنواحي باقصى سرعة وعليكم أن تعرفوا أقوال العلماء لمناظرتهم في الإسلام، لأن الماركسية تفرض علينا أن نقوم بالمناظرة، ولذلك يجب علينا أن ننظر في أقوال العلماء، ونلتفت اليها التفاتا تاما.

واعلموا أن العلماء في هذا الوقت على خمسة اقسام:

١ ـ قسم منهم يعرف الاسلام على أعلى مستوى علمي وطالعوا الاسلام بعمق حتى وصلوا الى أسراره وغوامضه ، فلذلك يناظروننا ويحرضون العوام علينا .

٢ ـ الذين لم يعرفوا الإسلام على أعلى مستوى علمي ولكن لهم عصبية اسلامية فلذلك يكونون لنا أعداء .

٣ ـ الذين يعيشون في المدن والقرى والنواحي ينصتون في صمت وخمول لا يعرفون من الإسلام إلا جوانب العبادات .

٤ ـ الذين لهم عصبية مذهبية يقومون كل حين بتكفير من خالفهم .

٥ ـ الصوفية وأصحاب الزوايا والسجادات الوراثية .

وعليكم ان تنبهوا مراكز الشرطة عن القسم الاول واحذروا القبض عليهم تجنبا لتشويش العوام وتظاهرهم حتى لا يتعكر الجو . وعليكم ان تستخدموا العلماء الذين هم خلاف هؤلاء عقيدة ونظرا وهذه من احسن العوامل . وطمئنوا المفكرين منهم بالمعونات المادية والطمع واجعلوهم أداة للتنفيذ .

أما القسم الثاني من العلماء فعليكم بالصبر والتحمل أمامهم لئلا يفسدوا بيئتهم ، وان حاولوا افساد بيئتهم فافرغوا منهم وممن وافقهم بتدابير قاسية من قتل وتحريق ونهب وسلب حتى لا يستطيعوا اظهار الفكر من حولهم . وأما القسم الثالث من العلماء فتستطيعون ان تستخدموهم على هواكم بالترغيب تارة والترهيب أخرى ، والاطلاع في سعة المعاش وتولي المناصب الرفيعة لأنهم أهل طمع وطموح .

وأما القسم الرابع من العلماء فحرضوهم على من خالفهم باغرائهم على تولي المناصب الرفيعة .

وأما القسم الخامس من العلماء فاعملوا على مناظرتهم بالتدريج حتى لا يفرقوكم .

أيها الاخوة:

مناظرتنا هذه ضد الاسلام تستغرق عامين، وبعد ذلك تستخدم العوامل الاخرى ضد الاسلام.

وبهذه العوامل نستطيع أن نبعد الإسلام عن المدن والقرى والنواحي البعيدة ولا يبقى عند ذلك أي حركة من حركات الإسلام ضد الشيوعية، وقد أفهمتكم أن مقاومتنا للإسلام بطريقتين:

١ ـ الخداع باسم الاسلام.

٢ ـ استئصاله.

وقد بينت طريقة سير العمل في الأولى وهي المطابقة لفكر ماركس ولينين.

وعلى رفقائنا ان يرسخوا في أذهانهم أن المبارزة ضد الإسلام من أهم المسائل الإساسية الشيوعية لأن فلسفة المادة الماركسية هي انكار الإله والدين فمبارزته ألزم وأوجب علينا من كل شيء حتى من الرأسمالية والمثالية(١).

هذه نبذة مما ألقاه الغاشم المغتصب الفاتك نور تراكي في اجتماعه الذي عقده لتفهيم أعضائه الشيوعيين طريقة حربهم للاسلام والمسلمين.

---

(١) نشرنا الوثيقة كما وردت على الرغم من عدم وضوح بعض عباراتها.

ماذا فعلت أمريكيا بوصية فرانكلين

بنيامين فرانكلين أول رئيس للحكومة الأميركية المؤقتة التي قامت بعد حرب الاستقلال، وكان فرانكلين مثقفا واسع الاطلاع، جاب أفاق العالم ، ودرس تاريخ الشعوب، قبل تولية الرئاسة ، وقد عرف الخطر الذي يأتي من اليهود ، وما يقومون به من فساد وافساد ، ولذلك فإنّه بعد توليه الرئاسة سنة ١٧٨٩م كتب بخط يده وثيقة خطيرة تتعلق باليهود وبيان الخطر المتوقع منهم ، يحذر الشعب الأمريكي الفتى من الوقوع في برائنهم، وقد ألقى بنيامن بنفسه الخطاب الذي كتبه بيده، لقد جاء في هذه الوثيقة ما نصّه :

«ايها السادة ، هناك خطر عظيم يتهدد الولايات المتحدة الاميركية . . وذلك الخطر العظيم هو خطر اليهود . . . ففي كل ارض حل بها اليهود اطاحوا بالمستوى الخلقي ، وافسدوا الذمة التجارية فيها ، ولايزالون منعزلين لا يندمجون بغيرهم . وقد ادى بهم انعزالهم عن الشعوب التي يعيشون معها الى محاولتهم خنق تلك الشعوب اقتصاديا كما فعلوا في البرتغال واسبانيا .

وخلال ١٧٠٠ عام من التاريخ ، استطاع هذا الشعب من خلال الادعاء بالمسكنة والمعاناة وبأنهم شعب مغلوب على امره مطرود ومطارد في أنحاء الدنيا . . استطاعوا من خلال ذلك أن يخدعوا شعوب العالم وأن يسيطروا على حياتهم » .(١)

وقد حفظت هذه الوثيقة في معهد بنيامين فرانكلين في فيلادلفيا، وقد

(١) جريدة القبس ١٩٨١/٣/١٥

تعرضت هذه الوثيقة للسرقة والاتلاف من قبل اليهود ، وفي كل مرة تضع إدارة المعهد صورة من النص الأصلي إلى أن حرق اليهود المعهد واحترقت تلك الوثيقة باحتراقه، وبقيت الوثيقة محفوظة في الكتب والمتاحف.

والذي ينظر اليوم يعلم أن امريكيا غشيها الخطر الذي حذرها منه رئيسها الأوّل، فوقعت فريسة لليهود، فقد أطاح اليهود بالمستوى الخلقي هناك ودمروه، وقبضوا بأيد من حديد على اقتصاد أمريكيا واعلامها، وسخروها لمآربهم ومصالحهم الخاصة ، لقد عملت أمريكيا بعكس وصية بنيامين، وقد أحرق اليهود الوصية مرتين : مرة عندما حملوا الشعب الأمريكي على مخالفتها، ومرة اخرى عندما حرقوها وحرقوا المعهد الذي يحتفظ بها.

وإنني أعجب أشدَّ العجب كيف قاوم الإسلام خطر اليهود هذه القرون الطويلة، وتهاوت أمريكيا أمامه بعد فترة وجيزة

وسقطت الشعارات المزيفة

قاد أعداء الإسلام وأذنابهم حربا ضارية ضد الإسلام ودعاته ، وعملوا على اقصائه عن الحياة ، وحاولوا ان يقيموا أصناما بديلة فكانت الدعوة الى القومية والاشتراكية وفصل الدين عن الدولة ، علاوة على الجهود غير المباركة التي يبذلها المبشرون والمستعمرون ، وقد بدأت في اواخر القرن الرابع عشر الهجري رحلة العودة المباركة الى الاسلام ، وقد أدركت ذلك صحيفة التايمز ، فنشرت في عددها الصادر في ٢٢/١١/١٩٧٩ ، وهو اليوم الأول من السنة الهجرية لسنة ١٤٠٠ هـ تقول :

«تبدأ اليوم السنة ١٤٠٠ من التقويم الاسلامي، وهو تقويم لا يعود إلى مولد النبي محمد، ولا إلى الوقت الذي بدأ فيه نزول القرآن الكريم ، إنما إلى السنة التي هاجر فيها الرسول من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة .

وهكذا فإن الاسلام يعتبر سنواته تبدأ من مولده كأمة، لذا لا عجب في ان تكون المحاولات التي قام بها حكام مختلفون خلال القرن الرابع عشر الهجري لاستثناء الإسلام من مضمار السياسة وقصره على الروح قد باءت بالفشل. ولا عجب في ان تكون آخر سنوات القرن قد شهدت إعادة تأكيد الإسلام لحقه في السلطة السياسية

والمجتمع الإسلامي - كما يعترف بذلك معظم المسلمين يجب أن يكون مجتمعا يحكمه الله وليس الإنسان. فدور الانسان هو تنفيذ القانون الإلهي.

والمسلمون لم يفقدوا ثقتهم في تفوق دينهم على غيره ، فالجهود التبشيرية المسيحية لم تحقق فشلا ذريعا في أي مكان كما حققته في مواجهة الاسلام. أما على الصعيد السياسي فغالبا ما اتخذ هذا شكل الايديولوجية القومية العلمانية . . وكانت القومية من هذا الطراز خلفا للاستعمار في كثير من الاقطار الاسلامية . ولكنها تبدو الآن في انهيار . ويرجع هذا من ناحية الى ان وميضها قد خفت نتيجة توليها السلطة ولعجزها عن تحقيق الفوائد المادية التي بدا أن الاستقلال يعد بها . ولكنها فشلت أيضا من ناحية أخرى لأنها ضحية تناقض داخلي . فهي تدعي محاربة النفوذ الغربي الذي جاءت هي نفسها ناتجا له . واذا كان لهوية الأمة الاسلامية ان تتأكد فمن المؤكد انها لن تقنع بدولة قومية علمانية . . إذ يجب إعادة النظام الاسلامي الذي يحكمه القانون الالهي » .

مواقف مؤثرة

بكى النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع حصين

كانت قريش تعظم حصين بن عبيد بن خلف الخزاعـي ، فجـاؤوا له ، فقالوا له: كلّم لنا هذا الرجل ، فإنّه يذكر آلهتنا ، ويسبهم ، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم أوسعوا للشيخ وعمران وأصحابه متوافرون ، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك ، إنّك تشتم آلهتنا، وتذكرهم ، وقد كان أبوك حصينة وخيرا ؟!

فقال: «يا حصين إنّ أبي وأباك في النار، يا حصين كم تعبد من إله»

قال سبعة في الأرض وواحدا في السماء.

قال : «فإذا أصابك الضر من تدعو؟»

قال: الذي في السماء.

قال: «فاذا هلك المال من تدعو»؟

قال: الذي في السماء.

قال: «فيستجيب لك وحده، وتشركهم معه ، أرضيته في الشكر، أم تخاف أن يغلب عليك؟»

قال : ولا واحدة من هاتين، قال: وعلمت أنى لم أكلم مثله.

قال «يا حصين، أسلم تسلم».

قال : إنّ لي قوما وعشيرة، فماذا أقول؟

قال «قل اللهمّ إنّي استهديك لأرشد أمري، وزدني علما ينفعني» فقالها حصين، فلم يقم حتى أسلم.

فقام إليه عمران ابنه فقبل رأسه ويديه ورجليه، فلما رأى ذلك النبي صلى الله عليه وسلم بكى، وقال: «بكيت لما صنع عمران ، دخل حصين وهو كافر، فلم يقم إليه عمران ، ولم يلتفت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه ، فدخلني من ذلك الرقة »

فلما أراد حصين أن يخرج قال لأصحابه: «قوموا فشيعوه إلى منزله»، فلما خرج من سدة الباب ، رأته قريش، فقالوا: صبأ، تفرقوا عنه[1].

والمتأمل في هذه الحديث يجد فيه فوائد وعبرا:

١ ـ عندما يريد الله هداية عبد من عباده يهيء أسباب ذلك ، فقد دفعت قريش حصينا للمجيء الى الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان في ذلك هدايته .

٢ ـ مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم حصينا بالحقائق التي تخالف عقيدته ، فقد قال له: «إنّ أبي وأباك في النار»، فعلم أنّ مواجهة الناس بالحقائق التي تصادم عقائدهم وتصوراتهم الباطلة لا تنافي الحكمة ، لأنّ هذا من البلاغ.

٣ ـ محاورة الرسول صلى الله عليه وسلم لحصين وتبصيره بالأمر .

٤ ـ ارشاد الرسول صلى الله عليه وسلم لحصين بالتوجه إلى الله في طلب الهداية والعلم.

٥ ـ حال عمران مع أبيه حيث لم يأبه به حال كفره ، وعظم سروره وتعظيمه والده بعد اسلامه ، مما يوضح لنا أن آصرة الاسلام هي الآصرة الكبرى في نفوس الرعيل الأول .

(١) ساق هذا الحديث ابن حجز في ترجمة حصين في الاصابة في تمييز الصحابة (١/ ٣٣٧) وعزاه لابن خزيمة في صحيحة.

٦ - تأثر الرسول صلى الله عليه وسلم لفعل عمران بوالده وبكائه لذلك مما يدلُّ على رقّة نفس الرسول صلى الله عليه وسلم ولطيف إنسانيته .

٧ - تكريم الرسول - صلى الله عليه وسلم - لحصين وذلك عندما طلب من أصحابه أن يشيعوه إلى منزله .

أقسم على ربّك يا براء

البراء بن مالك بن النضر الأنصاري أحد الأبطال الشجعان المجابي الدعوة ، اشتـــد الأمر بالمسلمين في موقعة اليمامة ، فقال له خالد بن الوليد : قم يا براء ، فركب فرسه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثمّ قال : يا أهل المدينة لا مدنية لكم اليوم ، وإنما هو الله وحده والجنّة، ثمّ حمل وحمل الناس معه ، فانهزم أهل اليمامة، ولقى البراء في تلك الموقعة رجلا جسيما يقال له حمار اليمامة ، بيده سيف أبيض، فضرب البراء رجليه فانقعر فوقع على قفاه، فأخذ البراء سيف ذلك الرجل، وأغمد سيفه ، وضرب بذلك السيف حتى تقطع، وزحف المسلمون على أهل اليمامة حتى الجؤوهم إلى حديقة فيها مسيلمة ، فما كان من البراء إلاّ أن طلب من المسلمين أن يحملوه ويلقوا به في داخل الحديقة في وسط جموع مسيلمة ، فلما صار فوق الجدار رمى بنفسه عليهم ، فقاتلهم حتى فتح الباب وبه بضع وثمانون جراحة ما بين رمية بسهم أو ضربة، فحمل إلى رحله يداوي ، وأقام عليه خالد بن الوليد شهرا حتى عوفى ، وفي معركة تستر في بلاد فارس اشتد الأمر بالمسلمين، وانكشف الناس، فقال المسلمون : يابراء أقسم على ربّك ، فقال: أقسم عليك يا ربّ لما منحتنا أكتافهم وألحقتنى بنبيك ، فحمل وحمل المسلمون معه ، فقتل البراء عظيما من عظماء الفرس وأخذ سلبه ، وانهزم الفرس، وقتل البراء.

إنّ خالد بن الوليد كان قائدا على البراء وأمثاله ، فصنع بهم الأعاجيب، ودوخ المسلمون الفرس والروم في آن واحد، لقد كان فيهم رجال رباهم رسول الإسلام بالإسلام فكانوا عجائب الدنيا.

ما أنا بالذي أختار عليه أحدا

عندما يغادر المرء أهله وعشيرته وموطنه الذي درج فيه فإنّه لا يزال يحنُّ إليه ، ويشتاق إلى والد ربّاه، وأم حنت عليه ، وعشيرة عاش في أكنافها ، وأتراب قضى معهم أيام الطفولة والصبا ، وديار درج فيها ، فإذا تيسر له الرجوع إلى ذلك كلّه فغالب نفسه ، وتمسك بإرث جديد، وتمسك بديار غير دياره ، وأهل غير أهله ، فإنَّ في ذلك عجبا.

ومن هؤلاء الذين كان أمرهم عجبا زيد بن حارثة[1]،فقد اختطفه بعض العرب من أهله صغيرا في غارة من غارات العرب التي لم تكن تهدأ، وباعه مختطفوه في سوق عكاظ ، واشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم ، ووهبته خديجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعد زواجه منها.

وعرف والده وعمّه بمكانه ، فخرجا إلى مكة يطلبان فداءه وسألا عن مكان الرسول صلى الله عليه وسلم حتى عرفاه ، فجاءاه فقالا : يا بن عبد المطلب ، يا ابن سيد قومه ، أنتم أهل حرم الله ، تفكون العاني، وتطعمون الأسير، جئناك في ولدنا عبدك فامنن علينا ، وأحسن في فدائه، فإنا سنرفع لك .

قال: وما ذاك ؟

قالوا: زيد بن حارثة.

---

(١) انظر القصة في ترجمة زيد في الاصابة لابن حجر (١/ ٥٦٣) وقد عزاها الى هشام بن محمد بن السائب الكلبي.

فقال: أو غير ذلك ، أدعوه فخيروه ، فإن اختاركم فهو لكم بغير فداء، وإن اختارني، فوالله ما أنا بالذي اختار على من اختارني فداء.

قالوا : زدتنا على النَصف.

فدعاه، فقال : هل تعرف هؤلاء؟

قال : نعم، هذا أبي، وهذا عمّي.

قال: فأنا من قد علمت ، وقد رأيت صحبتي لك ، فاخترني او اخترهما .

وبلا تردد ولا اعمال فكر ونظر أجاب : ما أنا بالذي اختار عليك ، أنت مني بمكان الأب والعم.

وكان أمرا فيه عجب وغرابة ، وقد أثار ذلك الأب والعم فقالا : ويحك يا زيد ، أتختار العبودية على الحريّة، وعلى أبيك وعمّك، وأهل بيتك؟

قال: نعم، إني قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا بالذي اختار عليه أحدا .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك أخرجه إلى الحجر فقال: اشهدوا أنّ زيدا ابني يرثني وأرثه، فلما رأى ذلك أبوه وعمّه طابت أنفسهما وانصرفا[1].

---

(١) ثمّ أبطل الله التبني في محكم كتابه فدعى لأبيه زيد بن حارثة..

ليس هذا كلام مجنون

قدم ضماد الأزدي مكة ، فسمع سفهاء مكة يقولون : إنّ محمدا مجنون ، وكان ضماد يرقى من الريح ، فدفعه نبله إلى الذهاب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم - ليرقيه مما به ، فجاءه فقال : إني أرقى من هذه الريح ، وإنّ الله يشفى على يدي من شاء ، فهلْ لك؟

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : « إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضل الله ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، أما بعد : » فلما سمعها ضماد علم أنّ هذا كلام لا يقوله من به جنون ، وعلم أنّهم كاذبون عليه فيما قالوه .

قال ضماد للرسول صلى الله عليه وسلم : أعد عليَّ كلماتك هؤلاء ، فأعادهن عليه الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، فقال: لقد سمعت قول الكهنة ، وقول السحرة ، وقول الشعراء فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغني قاموس البحر ، هات يدك أبايعك على الإسلام . فبايعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال رسوله الله صلى الله عليه وسلم : «وعلى قومك؟» قال: وعلى قومي .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم - سريّة بعد مقدمه المدنية ، فمرّوا

على قومه ، فقال صاحب السرية للجيش : هل أصبتم من هؤلاء شيئا ؟ فقال رجل من القوم أصبت منهم مطهره ، فقال : ردوها ، فان هؤلاء قوم ضماد .

رضي الله عن ضماد لقد كان صاحب علم ، ولذلك كشف باطل أهل مكة بمجرد سماعه كلام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعلم أنّه كلام عاقل، بل كلام لم يسمع من عاقل مثله ، لقد جاء الرسول صلى الله عليه وسلم - يريد شفاءَه فوجد رجلا عنده دواءٌ لدائه هو ، داء الكفر والشرك والباطل الذي هو فيه .

إن عجزت عن شيء فاستعن بمولاي

هذه القصة تنبيك عما يؤرق الصالحين عند حضور الأجل، فكل ما أهم الزبير قبيل خوض المعركة التي ظنَّ أن فيها أجله دينه الكبير الذي كان يحمله ، وقد كانت وصيتُه إلى ابنه قضاء دينه ، ووجهه إلى الاعتماد على الله والتوكل عليه في هذا الأمر ، ولقد كان لهذا التوجيه الأثر الكبير في تحقيق المراد، ولنترك عبدالله بن الزبير يروي لنا القصة كاملة كما أوردها البخاري في صحيحه ، قال عبدالله بن الزبير:

«لما وقف الزبير يوم الجمل دعاني . فقمتُ إلى جنبه . فقال: يا بُنَيَّ، إنه لا يُقتَلُ اليومَ إلا ظالم أو مظلوم وإني لا أُراني إلا سأُقتَلُ اليومَ مظلوماً . وإن من أكبر همِّي: لَدَيْني. أفترى ديننا يُبقي من مالنا شيئاً؟ ثم قال يا بُنَيَّ، بعْ مالَنا . واقض ديني. وأوصى بالثلث ، وثلثه لبنيه ـ يعني لبني عبدالله ـ قال: فإن فضل شيء من مالنا بعد قضاء الدين : فثلثه لولدك . قال عبدالله بن الزبير : فجعل يوصيني بدينه ، ويقول: يا بني، إن عجزتَ عن شيء منه فاستعن بمولاي. قال : فوالله ما دريت ما أراد، حتى قلت: يا أبتِ مَنْ مولاك؟ قال: الله . قال: فوالله ما وقعتُ في كُرْبة من دَينه إلا قلت: يا مولى الزبير، اقض عنه دينه فيقضيه . قال: فقُتِل الزبير ، ولم يَدعْ ديناراً ولا درهماً إلا أرَضين . منها: الغابة ، وإحدى عشرة داراً بالمدينة ، ودارين بالبصرة ، وداراً بالكوفة، وداراً بمصر . قال: وإنما كان دينه الذي كان عليه : أن الرجل كان يأتيه بالمال فيستودعه إياه . فيقول الزبير : لا ، ولكن هو سَلَف . فإني أخشى عليه الضَّيعة ، وما وَلي إمارةً قطُّ، ولا جِباية ، ولا

خراجاً ، ولا شيئاً ، إلا أن يكون في غَزْوٍ مَع رسول الله ﷺ ، أو مع أبي بكر وعمر وعثمان . قال عبدالله بن الزبير : فحسِبْتُ ما كان عليه من الدين . فوجدته ألفَيْ ألفٍ ، قال : فلقى حكيم بن حزام عبد الله بن الزبير ، فقال : يا ابن اخي كم على اخي من الدين قال : فكتمته . وقلت مائة ألف . فقال حكيم والله ما أرى اموالكم تسع هذه . فقال عبد الله : أرأيت ان كانت ألفي ألف ومائتي ألف ؟ قال : ما أراكم تطيقون هذا . فان عجزتم عن شيء منه فاستعينوا بي . وكان الزبير قد اشترى الغابة بسبعين ومائة ألف . فباعها عبد الله بألف ألف وستمائة ألف ، ثم قال : من كان له على الزبير شيء فليوافنا بالغابة . قال : فأتاه عبد الله بن جعفر ، وكان له على الزبير أربعمائة ألف . فقال لعبد الله : ان شئتم تركتها لكم . قال عبد الله : لا . قال : فان شئتم جعلتموها فيما تؤخرون ، ان أخرتم . فقال عبد الله : لا . قال : فاقطعوا لي قطعة . فقال عبد الله : لك من ههنا الى هناك قال : فباع عبد الله منها . فقضى دينه وأوفاه . وبقى منها أربعة اسهم ونصف . قال فقدم على معاوية ، وعنده عمرو بن عثمان ، والمنذر بن الزبير ، وابن زمعة . قال : فقال له معاوية : كم قومت الغابة ؟ قال كل سهم مائة ألف . قال : كم بقي منها ؟ قال : أربعة أسهم ونصف . فقال المنذر بن الزبير قد اخذت منها سهما بمائة ألف . وقال عمرو بن عثمان : قد أخذت سهما بمائة ألف . وقال ابن زمعة : قد اخذت سهما بمائة ألف . فقال معاوية : كم بقي ؟ قال : سهم ونصف . قال : قد اخذته بخمسين ومائة ألف . قال وباع عبد الله بن جعفر نصيبه من معاوية بستمائة ألف . قال : فلما فرغ ابن الزبير من قضاء دينه . قال بنو الزبير . اقسم بيننا ميراثنا . قال لا . والله لا أقسم بينكم حتى أنادي بالموسم اربع سنين : ألا من كان له على الزبير دين فليأتنا فلنقضه . قال : فجعل كل سنة ينادي في الموسم . فلما مضى اربع سنين قسم بينهم . ودفع الثلث . قال : وكان للزبير أربع نسوة . فأصاب كل امرأة ألف ألف ومائتا ألف . قال : فجميع ماله خمسون ألف ألف ومائتا ألف »[1] .

(١) جامع الأصول: ١٠/٢٨٤ .

شرح تحفته وزوجه ابنته

رحم الله علماءَنا الأوائل ، فقد ضربوا أمثلة رائعة في مختلف المجالات ، وقد كانت هذه الأمثلة منارة يحتذيها مَنْ بعدهم ، ومشعلاً يضيء الطريق للسالكين ، هذا محمد بن أحمد أبو بكر علاء الدين السمرقندي (المتوفى سنة ٥٣٩ هـ) صاحب كتاب تحفة الفقهاء الذي يقول فيه الشيخ علي الخفيف « الكتاب من ناحية موضوعة مجموعة قيمة من أحكام مذهب أبي حنيفة في كل باب من أبواب الفقه مقارنة في كثير من مسائله بمذهب الشافعي فيها أحياناً ، وبمذهب مالك أحياناً أخرى ، على وضع تجنب فيه مؤلفه الطول الممل ، والاختصار المخل . وهو من ناحية ترتيبه وعرضه للمسائل وتفريعها وردها إلى أصولها أقرب ما يكون إلى ما انتهى إليه التأليف في العصر الحاضر . . . . »

كان لهذا العالم الجليل بنت تسمى فاطمة رباها فأحسن تربيتها وعلمها فأحسن تعليمها ، يقول صاحب كتاب الفوائد البهية[1] : « كانت ابنته فاطمة الفقيهة العلامة زوجة علاء الدين الكاساني ، وكانت تفقهت على أبيها ، وحفظت تحفته ، وكان زوجها يخطىء » فترده إلى الصواب ، وكانت الفتوى تأتي فتخرج وعليها خطها وخط أبيها ، فلما تزوجت بصاحب البدائع كانت تخرج وعليها خطها وخط أبيها وخط زوجها » .

(١) الفوائد البهية للكتوى: ص ١٥٨

وقد تسامع الملوك بفاطمة فخطبوها من أبيها فامتنع والدها من تزويجها ، وكان من طلبة الشيخ تلميذ يسمى علاء الدين أبو بكر بن مسعود الكاساني ، لازم شيخه ، واشتغل بالعلم عليه ، وبرع في علم أصول الفقه ، والفقه ، وصنف كتاب بدائع الصنائع في الفقه ، وهو في الحقيقة شرح لكتاب شيخه تحفة الفقهاء ، وعرض الكتاب على شيخه ، ففرح به فرحاً شديداً ، وزوجه ابنته ، وجعل مهرها منه ذلك الكتاب الذي ألفه ، فقال الفقهاء في عصره : شرح تحفته ، وزوجه ابنته . وبعض الناس يوجه سهام اللوم والتأنيب للرجل الذي يعرض على من يظن فيه الخير والصلاح ابنته أو قريبته ، وقد يزدرونه ويحتقرونه ، وهؤ لاء الناس لا يجدون غضاضة في أن يعرضوا أو يطلبوا تزويج أبنائهم ممن يرون صلاحهن .

ولم تكن هذه النظرة موجودة عند الرعيل الأوّل ، فقد توفى زوج حفصة بنت عمر بن الخطاب ، فلم يجد والدها عمر بن الخطاب بأساً في أن يعرض على عثمان وأبي بكر من بعده الزواج من ابنته ، ويعتذر عثمان ، ويصمت أبو بكر لأنّه يعلم أن رسول الله قد تكلّم في أمرها ، ثمّ يخطبها الرسول ﷺ - لنفسه ويتزوجها[1] .

ومن الأعلام الذين فعلوا مثل هذا الحسن البصري فقد زوج ابنته أحد تلاميذه ، ومن العلماء المعاصرين من فعل مثل ذلك .

إن هذا الفعل لا يضير الفتاة ولا أهلها ، فقد رغب الإسلام في التزوج من الصالحين والصالحات ، والبحث عمن يتصف بهذه الصفة من الأمور التي يحبها الله .

---

(١) الحديث في البخاري وغيره .

يطعن في علي ويبكي على الحجاج

وقفت طويلاً أتأمل في قصة ذكرها ابن عساكر في تاريخه عن رجل سماه أبا يحيى السكرى[1]، قال هذا الرجل : دخلت مسجد دمشق ، فرأيت به حلقاً ، فقلت : هذا بلد دخله جماعة من الصحابة ، يعني أن العلماء لا بدَّ أن يكونوا ورثوا علمهم ، فمال أبو يحيى إلى حلقة من تلك الحلق في صدرها شيخ جالس ، فجلس إليه أبو يحيى ، فقال رجل جالس في الحلقة لذلك الشيخ : من علي بن أبي طالب ؟

فقال ذلك الشيخ : خفاق ، يعني : ضعيفاً ، كان بالعراق ، اجتمعت عليه جماعة ، فقصد أمير المؤمنين أن يحاربه ، فنصره الله عليه .

فاستعظم أبو يحيى ذلك الكلام في حقِّ عليٍّ بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين وأحد العشرة المبشرين بالجنَّةِ ، وقام من الحلقة متعجباً من ذلك الجهل الشنيع ، ولا عجب فالدعاية السيئة التي نسجتها الدولة الأموية كان لها تأثيرها .

ولكن ما سمعه أبو يحيى بعد ذلك كان أعجب وأغرب ، مرّ أبو يحيى بعد قيامه من ذلك المجلس بشيخ في جانب من جوانب المسجد يصلي إلى سارية ورآه حسن السمت ، حسن الهيئة ، يتم أركان الصلاة ، ويظهر منه الخشوع ، فتوسم

---

(١) انظر القصة في المدخل لابن بدران ص ٥

فيه خيراً ، وأراد أن يشكو إليه ما أوجع قلبه ، وآلم نفسه ، فقال له : يا شيخ ، أنا رجل من أهل العراق ، جلست إلى تلك الحلقة ، وقص عليه القصة .

فقال ذلك الشيخ : في هذا المسجد عجائب ، بلغني أن بعض أهـل هذا المسجد يطعن على أبي محمد الحجاج بن يوسف الثقفي ، فعليٌّ بن أبي طالب من هو ؟!! ثمَّ جعل يبكي .

إنَّ بعض الذين يقابلهم المسلم لا يقلون جهلاً عن هذا الذي يبـكي لأنَّ بعض الناس نال من أبي محمد الحجاج ، ثمَّ يقول عن علي بن أبي طالـب : من هو !!

ومثل هؤلاء لا يحسن معهم الجدال .

لو فهمتها لألفيت لها في قلبك كلوماً

كان ميمون بن مهران من أجلّ علماء التابعين وزهادهم وعبادهم وأئمتهم وكان إمام أهل الجزيرة ، حدث ابنه عمر أنه خرج به يقوده في بعض سكك المدينة ، فمرّا بجدول فلم يستطع الشيخ الوالد أن يتخطى الجدول لكبر سنه وضعفه ، فاضطجع الابن فمرّ الأب على ظهره ، ثمّ قام فأخذ بيد أبيه ، وقصدا منزل الحسن البصري ، فطرقا الباب ، فخرجت لهما جارية صغيرة في السادسة من عمرها ، فقالت : من هذا ؟ فقلت : هذا ميمون بن مهران أراد لقاء الحسن ، فقالت : كاتب عمر بن عبد العزيز ؟ قلت لها : نعم ، قالت : يا شقي ، ما بقاؤ ك إلى هذا الزمان السوء ؟ قال : فبكى الشيخ ، فسمع الحسن بكاءه ، فخرج إليه فاعتنقا ، ثمّ دخلا ، فقال ميمون : يا أبا سعيد ، إني قد أنست من قلبي غلظة ، فاستكنّ لي منه ، فقرأ الحسن : ﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ﴾[1]، فسقط الشيخ مغشياً عليه ، فرأيته يفحص برجليه ، كما تفحص الشاة إذا ذبحت ، فأقام طويلاً ، ثمّ جاءت الجارية فقالت : أتعبتم الشيخ ، قوموا تفرقوا ، فأخذت بيد أبي ، فخرجت فقلت : يا أبت هذا الحسن ؟ قال : نعم . قلت : قد كنت أحسب في نفسي أنه أكبر من هذا ؟ قال : فوكز في صدري وكزة ، ثمّ قال : يا بنيّ ، لقد قرأ علينا آية لو فهمتها بقلبك لألفيت لها فيه كلوماً[2] .

---

(١) سورة الشعراء : ٢٠٥ ـ ٢٠٧

(٢) البداية والنهاية : (٣١٤/١٩)

محاورات

عمر بن الخطاب يحاور اليهود

كان عمر بن الخطاب سريع البديهة قويُّ الحجّة ، وكان من أمره في بداية الهجرة أنّه كان يشهد اليهود في يوم مدراسهم[1] ، فيعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ، ومن القرآن كيف يصدق التوراة .

وبينما هو عندهم ذات يوم قالوا : يا بن الخطاب ما من أصحابك احد أحبُّ إلينا منك ، قال : ولم ؟ قالوا : لأنك تغشانا وتأتينا .

فبين لهم سبب مجيئه لهم ، فلم يكن يأتيهم حبا فيهم ، وإنما لفت نظره ذلك التوافق بين التوراة والقرآن ، « إني آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة » ومن التوراة كيف تصدق القرآن » . قالوا : ومر رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا بن الخطاب ، ذاك صاحبك فالحق به ؛ قال : فقلت لهم عند ذلك : نشدتكم بالله الذي لا اله الا هو ، وما استرعاكم من حقه ، وما استودعكم من كتابه ، هل تعلمون أنه رسول الله ؟

لقد كان قسماً عظيماً أوقعهم في حرج كبير ، ولقد أذهلهم القسمُ وأسكتهم ولم يتجرأ واحد منهم على الإنكار والمكابرة ، ذلك أنهم كانوا يعرفون أن محمداً مرسل من ربهّم كما يعرفون أبناءَهم ، ولكنّهم كانوا يستكبرون ، فما كان من

(١) ابن جرير الطبري وغيره انظر تفسير ابن كثير : (١ / ٢٢٩)

عالمهم وكبيرهم إلاّ أن قال : إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه . قالوا : فأنت عالمنا وكبيرنا فأجبه أنت .

قال أمّا إذا نشدتنا بما نشدتنا ، فإنّا نعلم إنّه رسول الله ؛ لقد صدقوا في الإجابة ، وما دام الأمر كذلك ، فمقتضى هذا العلم وتلك المعرفة الاتباع وإلاّ فإنه الهـلاك

وقد واجههم عمر بذلك فقال : ويحكم إذا هلكتم . ولكنَّ النفوس المعوجة المريضة لا تعدم أن تجد إجابة تبرر بها ضلالها وخطأها ، قالوا : إنّا لم نهلك ، قلت : كيف ذلك ، وأنتم تعلمون أنّه رسول الله ، ولا تتبعونه ولا تصدقونه ؟

قالوا : إنَّ لنا عدواً من الملائكة وسلما من الملائكة ، وإنّه قرن بنبوته عدونا من الملائكة ؛ قال عمر : ومن عدوكم ، ومن سلمكم ؟ قالوا : عدونا جبريل ، وسلمنا ميكائيل .

أي وربي إنها الخرافة جاءت بها يهود تريد أن تغشي بها على أبصار من ضعف بصره وبصيرته ، ولكن هل تجوز هذه الفريـةعلى ذوي البصائر والأبصار أمثال عمر بن الخطاب الذي أوتي علماً وفهماً وحجة وبياناً ؟ لا والله ، قالـوا : إن جبرائيل ملك الفظاظة والغلظة والاعسار والتشديد والعذاب ونحـو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال : قلت : وما منزلتهما من ربهما عزَّ وجل ؟ قالوا : أحدهما عن يمينه ، والآخر عن يساره ، قال عمر : قلت : فوالذي لا إله إلاّ هو إنهما والـذي بينهما لعـدو لمن عاداهما ، وسلـم لمن سالمهما ، وما ينبغي لجبريل أن يسالم عدوّ ميكائيل ، وما ينبغي لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل .

أرأيت الحجة التي جاءَت على البديهة تسكت الخصم وتكشف عوار حجته ، وتفضح كيده ومكره ، جبرائيل وميكائيل ملكان مطيعان لربهّما لا يخالفان

أمره ، ولا يختلفان فيما بينهما ، يعاديان أعداء الله ، ويواليان أولياءه ، وعدو جبريل هو عدوّ ميكائيل ، وعدوّ ميكائيل عدوٌّ لجبريل ، فالذي يريد تقسيم الملائكة كما يقسم ملوك الأرض فقد ضلَّ وغوى ، ونزل القرآن يصدق ابن الخطاب ﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾[1] .

---

(١) سورة البقرة : ٩٧ ـ ٩٨

ابن عباس يحاور الخوارج

أثناء الحرب التي دارت بين علي ومعاوية ، خرج فريق كفر علياً ومعاوية وجاؤوا بأمور لم تكن معروفة من قبل ، وذهب ابن عباس إليهم ليوضح الحق ، ويكشف الشبهة .

قال ابن عباس : دخلت عليهم وهم قائلون ، فإذا هم مسهمة وجوههم من السهر ، قد أثر السجود في جباههم ، كأن أيديهم ثفن الإبل (ثفن الإبل : ما يقع على الأرض من الإبل كالركبتين) ، عليهم قمص مرحضة (المرحضة : المغسولة) ، فقالوا : ما جاء بك يا بن عباس ؟ وما هذه الحلة التي عليك ؟

قال : قلت : ما تعيبون من ذلك ؟ فلقد رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ وعليه أحسن ما يكون من الثياب اليمنية ، قال : ثم قرأت هذه الآية : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾ .(1)

فقالوا : ما جاء بك ؟

قال : جئتكم من عند أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وليس فيكم منهم أحد ، ومن عند ابن عمّ رسول الله ـ ﷺ ـ وعليهم نزل القران ، وهم أعلم بتأويله ، جئت لأبلغكم عنهم ، وأبلغهم عنكم .

---

(١) سورة الأعراف : ٣٢

فقال بعضهم : لا تخاصموا قريشاً ، فإنَّ الله يقول : ﴿ بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴾ .[1]

فقال بعضهم : بلى فلنكلّمه ، قال : فكلّمني منهم رجلان أو ثلاثة .

قال : قلت : ماذا نقمتم عليه ؟

قالوا : ثلاثاً .

فقلت : ما هنَّ ؟

قالوا : حكّم الرجال في أمر الله ، وقال الله تعالى : ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ .[2]

قال : هذه واحدة ، وماذا أيضاً ؟

قالوا : فإنّه قاتل ، فلم يسب ، ولم يغنم ، فلئن كانوا مؤمنين ما حلَّ قتالهم ، ولئن كانوا كافرين ، لقد حل قتالهم وسبيهم .

قال : قلت : وماذا أيضاً ؟

قالوا : ومحا نفسه من إمرة المؤمنين ، فإن لم يكن أمير المؤمنين ، فهو أمير الكافرين .

قال : قلت : أرأيتم إن أتيتكم من كتاب الله وسنة رسوله بما ينقض قولكم هذا ، أترجعون ؟

قالوا : وما لنا لا نرجع !!

قال : قلت : أمّا قولكم : « حكم الرجال في أمر الله فإنَّ الله قال في كتابه : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ ﴾[3]، وقال في المرأة وزوجها : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ ﴾[4] فصيرَّ الله

---

(١) سورة الزخرف : ٥٨

(٢) سورة الأنعام : ٥٧

(٣) سورة المائدة : ٩٥

(٤) سورة النساء : ٣٥

ذلك إلى حكم الرجال ، فناشدتكم الله ! أتعلمون حكم الرجال في دماء المسلمين ، وفي إصلاح ذات بينهم أفضل ، أو في دم أرنب ثمنه ربع درهم ؟ وفي بضع امرأة ؟

قالوا : بلى ، هذا أفضل .

قال : أخرجتم من هذه ؟

قالوا : نعم .

قال : وأمّا قولكم : « قاتل ولم يسب ، ولم يغنم » أتسبون أمكم عائشة ؟

فإن قلتم : نسبيها ، فنستحلّ ما نستحلّ من غيرها ، فقد كفرتم ، وإن قلتم : ليست بأمّنا فقد كفرتم ، فأنتم ترددون بين ضلالتين ، أخرجتم من هذه ؟

قالوا : بلى .

قال : وأمّا قولكم : « محا نفسه من إمرة المسلمين » فأنا آتيكم بمن ترضون ، إنَّ نبي الله يوم الحديبية حين صالح أبا سفيان وسهيل بن عمرو ، قال رسول الله ﷺ : « اكتب يا علي : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » ، فقال أبو سفيان وسهيل بن عمرو : ما نعلم إنك رسول الله ، ولو نعلم إنك رسول الله ما قاتلناك .

قال رسول الله ﷺ : « اللهم إنك تعلم أني رسولك ، يا عليّ اكتب : هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبد الله وأبو سفيان وسهيل بن عمرو[1] .

لقد كان ابن عباس بحراً زخّاراً ، كشف الشبهة ودحضها ، وأتى بالأدلة البينة من الكتاب والسنة ، ولقد أثمرت جهوده فرجع منهم عن باطلهم ألفان .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى علماء أمثال ابن عباس ، كي يقارعوا أهل الباطل ، ويكشفوا عن شبهاتهم ، ويوضحوا الطريق الحق ، وفي الأمة بقية خير ، والله غالب على أمره ، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العظيم .

---

(١) انظر الاعتصام للشاطبي ٢/ ١٨٧

عمر بن عبد العزيز يحاور الخوارج

رحم الله عمر بن عبد العزيز فقد كان ـ والله ـ آية من آيات الله ، وقد اشتهر رحمه الله ـ بالعدل ورفع المظالم وردّ الأمر إلى نصابه ، وقد كان رحمه الله يملك مواهب مختلفة وصفات نادرة لا يعلمها كثير من الناس ، فمن ذلك غزارة علمه ، وقوة حجته ، روى ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة (ص ٩٩) أن خوارج خرجت بالحيرة في خلافة عمر بن عبد العزيز ، فأرسل إليهم عمر رسولاً وبعث معه كتاباً ، فأرسلوا إلى عمر رجلين ، فلما جاءا عمر وجلسا إليه قال لهما : ما الذي أخرجكم علينا ؟ فقال الذي نصب نفسه للجواب : إننا لم ننكر عليك عدلك ولا سيرتك ، ولكن بيننا وبينك أمر ، هو الذي يجمعنا ويفرق بيننا ، فإن أعطيتناه فنحن منك وأنت منّا ، وإن لم تعطنا فلسنا منك ، ولست منّا .

فقال عمر : فما هو ؟ .

فقال : خالفت أهل بيتك ، وسميتهم الظلمة ، وسميت أعمالهم المظالم ، فإن زعمت أنك على الحقّ ، وأنهم على الباطل ، فالعنهم وتبرأ منهم .

فقال عمر : إنكم لم تتركوا الأهل والعشائر وتعرضتم للقتال إلاّ وأنتم في أنفسكم مصيبون ، ولكنكم أخطأتم وضللتم، وتركتم الحقّ ، أخبراني عن الدين أواحد أو اثنان ؟

قالا : بل واحد .

قال : أفيسعكم في دينكم شيء يعجز عني؟

قالا : لا

قال : فأخبراني عن أبي بكر وعمر ما حالهما عندكما ؟

قالا : أفضل الناس أبو بكر وعمر .

قال : ألستما تعلمان أن رسول الله ﷺ لما توفي ارتدت العرب ، فقاتلهم أبو بكر ، فقتل الرجال ، وسبى الذرية ؟ .

قالا : بلى .

قال : عمر ، فلما توفي أبو بكر وقام عمر ، ورد تلك النساء والذراري إلى عشائرهم ، فهل تبرأ عمر من أبي بكر ، ولعنه بخلافه إياه ؟

قالا : لا .

قال : فتتولونهما على خلاف سيرتهما ؟

قالا : نعم .

قال عمر : فما تقولان في بلال بن مرداس ؟

قالا : من خير أسلافنا .

قال : أفليس قد علمتم أنّه لم يزل كافًّا عن الدماء والأموال ، وقد لطخ أصحابه أيديهم فيها ، فهل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لعنت إحداهما الأخرى ؟

قالا : لا .

قال : فتتولونهما على خلاف سيرتها ؟

قالا : نعم .

قال عمر : فأخبراني عن عبد الله بن وهب حين خرج بأصحابه من البصرة يريدون أصحابهم ، فمرّوا بعبد الله بن خباب ، فقتلوه ، وبقروا بطن جاريته ، ثم عدلوا على قوم من بني قطيفة ، فقتلوا الرجال ، وأخذوا الأموال ، وغلوا

الأطفال في المراجل ، ثمَّ قدموا على أصحابهم من الكوفة ، وهم كافون عن الدماء والفروج والأموال ، هل تبرأت إحدى الطائفتين من الأخرى ، أو لعنت إحداهما الأخرى ؟

قالا : لا .

قال : فتتولونها على خلاف سيرتها ؟

قالا : نعم .

فقال عمر : فهؤلاء الذين اختلفوا بينهم في السيرة والأحكام لم يتبرأ بعضهم من بعض ، ولا لعن بعضهم بعضاً ، وأنتم تتولونهم على خلاف سيرتهم ، فهل وسعكم في دينكم ذلك ، ولا يسعني حين خالفت أهل بيتي في الأحكام والسيرة حتى ألعنهم وأتبرأ منهم ؟

ثم قال : أخبراني عن اللعن ، فرض على العباد ؟

قالا : نعم .

فقال عمر : متى عهدك بلعن فرعون ؟

قال : ما لي به من عهد منذ زمان .

قال عمر : هذا رأس من رؤوس الكفر ، ليس لك عهد بلعنه منذ زمان ، وأنا لا يسعني أن ألعن من خالفتهم من أهل بيتي .

ثم قال لهم : ألستم أنتم الذين تؤمنون من كان رسول الله يخيفه ، وتخيفون من كان رسول الله يؤمنه ؟

فقالا : نبرأ إلى الله تعالى من هذه الصفة .

قال : بلى فسأخبركما عن ذلك ، ألستما تعلمان أن رسول الله -ﷺ- خرج والناس أهل كفر ، فدعاهم أن يقروا بالله ورسوله ، فمن أبى قاتله وخوفه ، ومن أقرَّ بها أمنه وكفَّ عنه ، وأنتم - اليوم - من مرَّ بكم يقرّبها قتلتموه ، ومن لم يقرَّ بها أمنتموه ، وخليتم سبيله ،

فقال أحد الرجلين : ما رأيت رأيت حجيجاً (أي محاجّاً قوي الحجّة) أقرب مأخذاً ، ولا أوضح منهاجاً منك ، أشهد أنّك على الحقّ ، وأنا على الباطل .

وقال الآخر : لقد قلت قولاً حسناً ، وما كنت لافتات على أصحابي حتى ألقاهم ، فلحق بأصحابه ، وأقام الآخر عند عمر ، فأجرى عليه العطاء والرزق حتى مات عنده .

رحم الله عمر بن عبد العزيز ، فلقد كان غزير العلم ، قوي الحجّة ، ولقد قوّى حجته انصافه وعدله ، وسيرته الزكية الطيبة ، فلم يجد خصومه فيه منفذاً ، ولا وجدوا في كلامه مطعناً ، وإنمّا يضيق صدر المخاصم بسبب قلة علم ، أو عقدة لسان ، أو سيرة ظالمة يخشى صاحبها أن يفضحه خصومه .

شيخ شامي يحاور المعتزلة

من أوتي بصيرة في كتاب الله لم يحتج في مناقشة أهل الضلال إلى علم الكلام ، ومنطق اليونان ، وعلم الفلسفة ، ففي كتاب الله غنى ، كيف لا ، وهو كتاب الله الذي وضح الدلائل ، وبين المسائل ، ونفى الضلال والباطل !! وإذا قصر الناس في الاستدلال من القرآن ، وطلبوا الحجة من غيره فلقصور في عقولهم ، وضعف في بصائرهم . وقد ذكر علماء التاريخ مناقشة أحد علماء السنة لقادة فتنة القول بخلق القرآن ، فألقمهم حجراً ، وأخزى حقّه باطلهم ، وقد اعتمد في حجاجه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ ، وهو حجاج قريب المأخذ ، يدركه الناس بسهولة ويسر ، وتستمع إليه فيأسرك روعة الاستدلال ، وقوة الحجة .

حكى المسعودي عن علي بن صالح قال : « حضرت يوماً من الأيام جلوس المهتدي للمظالم ، فرأيت من سهولة الوصول ونفوذ الكتب عنه إلى النواحي فيما يتظلم به إليه ما استحسنته ، فأقبلت أرمقه ببصري إذا نظر في القصص ، فإذا رفع طرفه إليّ أطرقت ، فكأنه علم ما في نفسي .

فقال لي : يا صالح ، أحسب أنّ في نفسك شيئاً تحب أن تذكره .

قال : قلت : نعم يا أمير المؤمنين .

فأمسك ، فلما فرغ من جلوسه أمر أن لا أبرح ، ونهض فجلست جلوساً

طويلاً ، فقمت إليه ، وهو على حصير الصلاة ، فقال لي : أتحدثني بما في نفسك ، أم احدثك ؟

فقلت : بل هو من أمير المؤمنين أحسن .

فقال : كأنني بك وقد استحسنت من مجلسنا ، فقلت : أيُّ خليفة خليفتنا ، إن لم يكن يقول بقول أبيه ، من القول بخلق القرآن .

فقال « أي الخليفة » : قد كنت على ذلك برهة من الدهر ، حتى أُقدم على الواثق شيخ من أهل الفقه والحديث من « أذنه » من الثغر الشامي ، مقيداً طوالاً ، حسن الشيبة ، فسلم غير هائب ، ودعا فأوجز ، فرأيت الحياء منه في حماليق عيني الواثق الرحمة عليه .

فقال : يا شيخ ، أجب أحمد بن أبي دؤاد عما يسألك عنه .

فقال : يا أمير المؤمنين ، أحمد يصغر ، ويضعف ، ويقل عند المناظرة فرأيت الواثق ، وقد صار مكان الرحمة غضبا عليه .

فقال : أبو عبدالله يصغر ويضعف ويقل عند مناظرتك ؟

فقال : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ، أتأذن لي في كلامه ؟

فقال الواثق : قد أذنت لك .

فأقبل الشيخ على أحمد فقال : يا أحمد إلى مَ دعوت الناس؟

فقال أحمد : إلى القول بخلق القرآن .

فقال له الشيخ : مقالتك هذه التي دعوت الناس اليها من القول بخلق القرآن أداخلة في الدين ، فلا يكون الدين تامّاً إلاّ بالقول بها ؟

قال : نعم .

قال الشيخ : فرسول الله ﷺ دعا الناس إليها أم تركهم ؟

قال : لا .

قال له : يعلمها أم لم يعلمها ؟

قال : علمها .

قال : فلمَ دعوت الى ما لم يدعهم رسول الله ﷺ إليه ، وتركهم منه ، فأمسك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، هذه واحدة .

ثم قال له أخبرني يا أحمد ، قال الله في كتابه العزيز : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١) الآية ، فقلت أنت : الدين لا يكون تاماً إلاّ بمقالتك بخلق القرآن ، فالله تعالى ـ عز وجل ـ صدق في تمامه وكماله ، أم انت في نقصانك ، فأمسك .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثانية .

ثمَّ قال بعد ساعة : أخبرني يا أحمد ، قال الله عز وجل : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (٢) فمقالتك هذه التي دعوت الناس إليها ، فيما بلغه رسول الله ﷺ إلى الأمّة أم لا ؟ فأمسك ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، وهذه ثالثة .

ثمَّ قال بعد ساعة : خبرني يا أحمد ، لما علم رسول الله ﷺ مقالتك التي دعوت الناس إليها ، أتسع له عن أن أمسك عنها أم لا ؟

قال أحمد : بل ، اتسع له ذلك .

فقال الشيخ : وكذلك لأبي بكر ، وكذلك لعمر ، وكذلك لعثمان ، وكذلك لعلي رحمة الله عليهم ؟

---

(١) سورة المائدة : ٣

(٢) سورة المائدة : ٦٧

قال : نعم .

فصرف وجهه إلى الواثق ، وقال : يا أمير المؤمنين ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسع الله علينا .

فقال الواثق : نعم ، لا وسع الله علينا ، إذا لم يتسع لنا ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأصحابه فلا وسع الله علينا .

ثمّ قال الواثق : اقطعوا قيوده ، فلما فكت جاذب عليها .

فقال الواثق : دعوه ، ثم قال : يا شيخ لمَ جاذبت عليها ؟

قال : لأني عقدت في نيتي أن أجاذب عليها ، فإذا أخذتها أوصيت أن تجعل بين يدي كفنـي ، ثمّ أقول : يا ربي ، سل عبدك : لمَ قيدني ظلماً ، وارتاع بي أهلي ؟ فبكى الواثق والشيخ وكل من حضر .

ثمّ قال له : يا شيخ ، اجعلني في حل .

فقال : يا أمير المؤمنين ، ما خرجت من منزلي حتى جعلتك في حلّ اعظاماً لرسول الله ﷺ ، ولقرابتك منه ، فتهلل وجه الواثق وسرّ .

ثمّ قال له : أقم عندي آنس بك .

فقال له : مكاني في الثغر أنفع ، وأنا شيخ كبير ، ولي حاجة .

قال : سل ما بدا لك .

قال : يأذن لي أمير المؤمنين في رجوعي الى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم .

قال : قد أذنت لك ، وأمر له بجائزة ، فلم يقبلها .

قال المهتدي : فرجعت من ذلك الوقت عن تلك المقالة ، وأحسب ـ ايضاً ـ ان الواثق رجع عنها »[1] .

(١) الاعتصام للشاطبي ١/ ٣٢٤

ابن العربي يحاور الباطنية

دعى العلامة ابن العربي في أيام شبابه لمناظرة [1] ، كان الدعاة طائفة من الباطنية ، وقد تندم الشيخ كثيراً لأنّه استجاب للدعوة ، فالمكان الذي عقدت فيه المناظرة مكان منعزل بعيد عن الناس ، والحضور كلهم كانوا من تلك الفرقة الضّالة ، وهؤلاء لا يتورعون عن سفك دم المخالف وإزالة أثره .

دخل الشيخ مكان اللقاء ، فوجدهم قد اجتمعوا ، ورأى النكر في وجوههم ، فسلّم ثمّ قصد جهة المحراب ، فركع ركعتين لا عمل له فيهما إلاّ تدبير القول معهم ، وأعمال الفكر في الخلاص منهم ، يقول رحمه الله : « فلعمر الذي قضى عليّ بالاقبال إلى أن أحدثكم ، إن كنت رجوت الخروج عن ذلك المجلس أبداً » .

وقد كان ذلك المسجد في مكان مرتفع في مدينة عكا ، وكان يشرف على شاطىء البحر حيث كان يضرب الموج الشاطىء ذا الحجارة السوداء ، يقول رحمه الله : « ولقد كنت أنظر في البحر يضرب في حجارة محددة تحت طاقات المحرس « اسم المكان الذي فيه اللقاء » فأقول : هذا قبري الذي يدفنوني فيه ، وأنشد في سرّي :

الاهل الى الدنيا معاد ؟ وهل لنا سوى البحر قبر ؟ أو سوى الماء أكفان ؟

(١) انظر هذه الحادثة في كتاب الاعتصام للشاطبي ١/ ١٩٧ طبعة المنار ـ القاهرة .

أجال الشيخ فكره ، ونظر في علومه ومحفوظه ، وكان مما يعلمه عنهم أنهم ليسوا بأهل علم ، ولا طلاب هداية ، وإنما هم أهل شغب ، وتذكر فيما تذكر قول بعض أهل العلم فيهم : « إنّ هؤلاء الباطنية أسخف الناس عقولاً وينبغي للنحرير ألاّ يتكلف لهم دليلاً ، ولكن يطالبهم « بِلِمَ » ، فلا قِبل لهم بها » .

قال رئيس الطائفة الضال للشيخ « بلغتني مجالسك ، وأنهي إليّ كلامك ، وأنت تقول ، قال الله ، وفعل ، فأيّ شيء هو الله الذي تدعو إليه ؟ أخبرني واخرج من هذه المخرفة التي جازت لك على هذه الطائفة الضعيفة » .

فما كان من أصحاب ذلك الطاغية إلاّ أن تناوشوا الشيخ بالكلام ، وصوبوا اليه من كلّ ناحية السهام .

لقد كان ابن العربي فطنا أريباً ، وكان يعلم أن لكل مقام مقالاً ، فكان جوابه يدلّ على تلك الفطانة ، ومناسباً لذلك المقام ، قال الشيخ مجيباً : « لقد كنت في لا شيء ، ولو خرجت من عكّا قبل أن أجتمع بهذا العالم ما رحلت إلا عريّاً عن نادرة الأيام ، انظر الى حذقه بالكلام ومعرفته حيث قال لي : أي شيء هو الله ؟ ولا يسأل بمثل هذا إلاّ مثله ، ولكن بقيت ها هنا نكتة لا بدّ من أن نأخذها عنه اليوم ، وتكون ضيافتنا عنده ، لم قلت : « أي شيء هو الله » ؟ فاقتصرت من حروف الاستفهام على « أي » ، وتركت الهمزة وهل وكيف وأني وكم وما ، وهي أيضاً من ثواني حروف الاستفهام ؟

وهذا سؤال ثانٍ عن حكمة ثانية : وهي أن لأيّ معنيين في الاستفهام ، فأيّ المعنيين قصدت بها ؟ ولم سألت بحرف محتمل ، ولم تسأل بحرف مصرح بمعنى واحد ، هل وقع ذلك بغير علم ، ولا قصد ولا حكمة ؟ أم بقصد وحكمة؟ فبينها لنا ؟ » .

لقد أبعد رحمه الله عن الموضوع ، ولكن هذه هي البضاعة التي تبهر هؤلاء وتلوي أعناقهم ، لقد كان الشيخ يعلم أن هذا الطاغية ما كان يعلم شيئاً مما طرحه

عليه ، وما خطرت هذه الأمور بباله وهو يلقي عليه سؤاله ، وما كان عنده علم عن حروف الاستفهام ، ولا عن أيّ ومعانيها ، ولذلك دهش ذلك الرجل وتحيرّ ، وعظم الشيخ في عيون أولئك الضلال قال رحمه الله : « فما هو الا أن افتتحت هذا الكلام وانبسطت فيه وهو يتغير ، حتى اصفر آخرا من الوجل ، كما اسود اولا من الحقد » ، وانظر الى تأثير هذا الكلام في اولئك الضلال : ورجع أحد أصحابه الذي كان عن يمينه الى آخر كان بجانبه ، وقال له : « ما هذا الصبي الا بحر زاخر من العلم ، ما رأينا مثله قط » .

فلما سمع الشيخ ذلك استغلّ الكلمة والموقف فقال : « هذا مجلس عظيم ، وكلام طويل ، يفتقر الى تفصيل ، ولكن نتواعد إلى يوم آخر ، وقمت وخرجت » .

لم ينتظر الشيخ جواباً ، لأنّه كان يعلم أن لا جواب عندهم ، ولم يتشبث شيخ أولئك الضلاّل بابقاء الشيخ ابن العربي ، ولعلّه سرّ باستئذانه ، خشية أن يظهر جهله أمام أتباعه .

قام الشيخ وخرج ، فقاموا كلهم معه ، وطالبوه بالبقاء قليلاً ، فرفض ، وأسرع حافياً ، وخرج الى الباب يعدو ، حتى أشرف على قارعة الطريق ، وبقي هناك مبشراً نفسه بالحياة ، وخرجوا بعده ، وأخرجوا له نعليه ، فلبسهما ومشى معهم - بعد أن أمن على نفسه - متضاحكاً ، ووعدوه مجلساً آخر ، قال : « فلم أف لهم ، وخفت وفاتي في وفائي » .

شيخ الإسلام ابن تيمية يحاور دجاجلة البطائحية

ظهرت في عهد شيخ الإسلام ابن تيمية جماعة تسمى بالبطائحية ، وقد كانوا يزعمون الإسلام ، وينتسبون الى الزهد والتصوف ، ويدعون التأله والتعبد ، ولكنهم يقومون بأعمال شركية ، ويظهرون بدعاً ما أنزل الله بها من سلطان ، ويحتالون لنيل أغراضهم بالكذب والتلبيس على الناس ، ويظهرون أعمالاً وخوارق يدللون بها على أن طريقهم حق وصدق ، كالدخول في النار ، وملامسة الحيات ، وإظهار الدم واللاذن والزعفران وماء الورد والعسل والسكر وغير ذلك ، وقد وقف شيخ الإسلام ابن تيمية في وجه باطلهم ، وأنكر عليهم ما خالفوا فيه أحكام الإسلام ، وسنّة الرسول ﷺ ، وجرت بينه وبين رجالهم وزعمائهم مراجعات ومحاورات ، فأقام عليهم الحجة ، وكشف باطلهم ، ثمّ ناقشهم في محفل عام حضر فيه الأمراء والقواد والعلماء وكثير من أهل دمشق وغيرهم ، وسنذكر طرفاً مما جرى بينه وبينهم مما ذكره شيخ الإسلام نفسه [1] .

فمن ذلك أن شيخاً منهم استدل على باطله بأنّه كان عند بعض أمراء التتر بالمشرق ، وكان له صنم يعبده ، فقال له الأمير التتري هذا الصنم يأكل من هذا الطعام كل يوم ، ويبقى أثر الأكل في الطعام بينا يرى فيه . فأنكر ذلك الشيخ ذلك ، فقال له الأمير التتري إن كان يأكل فأنت تموت . فقال الشيخ : نعم . قال : فأقمت عنده الى نصف النهار ، ولم يظهر في الطعام أثر ، فاستعظم ذلك التتري ، وأقسم بايمان مغلظة انه كل يوم يرى فيه أثر الأكل ، لكن اليوم بحضورك لم يظهر ذلك .

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ١١/٤٤٥ ـ ٤٧٥

شيخ الإسلام يكشف سرّ هذه المسألة :

فقال شيخ الإسلام : أنا أبين لك سبب ذلك : ذلك التتري كافر مشرك . ولصنمه شيطان يغويه بما يظهره من الأثر في الطعام ، وأنت كان معك من نور الإسلام وتأييد الله تعالى ما أوجب انصراف الشيطان عن أن يفعل ذلك بحضورك ، وأنت وأمثالك بالنسبة الى أهل الإسلام الخالص كالتتري بالنسبة إلى أمثالك ، فالتتري وأمثاله سود ، وأهل الإسلام المحض بيض ، وأنتم بلق فيكم سواد وبياض . فأعجب هذا المثل من كان حاضراً !!!

نهى الشيخ لهم عن التعبد بما لم يشرعه الله :

قال شيخ الإسلام : جاءني جماعة منهم مع شيخ لهم من شيوخ البر ، مطوقين بأغلال الحديد في اعناقهم ، وهو وأتباعه معروفون بأمور ، وكان يحضر عندي مرات فأخاطبه بالتي هي أحسن ؛ فلما ذكر الناس ما يظهرونه من الشعار المبتدع الذي يتميزون به عن المسلمين ، ويتخذونه عبادة وديناً يوهمون به الناس ان هذا سر من أسرارهم ، وإنه سيماء أهل الموهبة الإلهية السالكين طريقهم ـ أعني طريق ذلك الشيخ وأتباعه ـ خاطبته في ذلك في المسجد الجامع ، وقلت هذا بدعة لم يشرعها الله تعالى ولا رسوله ، ولا فعل ذلك أحد من سلف هذه الأمة ، ولا من المشايخ الذين يقتدي بهم ، ولا يجوز التعبد بذلك ، ولا التقرب به الى الله تعالى لأنّ عبادة الله بما لم يشرعه ضلالة ، ولباس الحديد على غير وجه التعبد قد كرهه من كرهه من العلماء للحديث المروي في ذلك وهو أن النبيﷺ رأى على رجل خاتماً من حديد فقال : « ما لي أرى عليك حلية أهل النار ؟ » . وقد وصف الله تعالى أهل النار بأنّ في أعناقهم الأغلال ، فالتشبه بأهل النار من المنكرات ، وقال بعض الناس قد ثبت في الصحيح عن أبي هريرة عن النبيﷺ في حديث الرؤيا قال في آخره « أحبُّ القيد وأكره الغل . القيد ثبات في الدين » ، فإذا كان مكروهاً في المنام فكيف في اليقظة ؟! . .

فقلت له في ذلك المجلس ما تقدم من الكلام أو نحواً منه مع زيادة . وخوفته

من عاقبة الإصرار على البدعة . وأن ذلك يوجب عقوبة فاعلة ، ونحو ذلك من الكلام الذي نسيت أكثره لبعد عهدي به . وذلك أن الأمور التي ليست مستحبة في الشرع لا يجوز التعبد بها باتفاق المسلمين ، ولا التقرب بها الى الله ولا اتخاذها طريقا الى الله وسببا لأن يكون الرجل من أولياء الله وأحبائه ، ولا اعتقاد أن الله يحبها أو يحب أصحابها كذلك ، أو أن اتخاذها يزداد به الرجل خيرا عند الله وقربة اليه ، ولا أن يجعل شعارا للتائبين المريدين وجه الله ، الذين هم أفضل ممن ليس مثلهم .

التقرب الى الله بفعل المباح والمكروه والحرام :

فهذا أصل عظيم تجب معرفته والاعتناء به ، وهو أنَّ المباحات إنَّما تكون مباحة إذا جعلت مباحات ، فأمَّا إذا اتخذت واجبات أو مستحبات كان ذلك ديناً لم يشرعه الله ، وجعل ما ليس من الواجبات والمستحبات منها بمنزلة جعل ما ليس من المحرمات منها ، فلا حرام إلا ما حرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ؛ ولهذا عظم ذم الله في القرآن لمن شرع ديناً لم يأذن الله به ، ولمن حرم ما لم يأذن الله بتحريمه فإذا كان هذا في المباحات فكيف بالمكروهات أو المحرمات !؟ ولهذا كانت هذه الأمور لا تلزم بالنذر ، فلو نذر الرجل فعل مباح أو مكروه أو محرم لم يجب عليه فعله كما يجب عليه إذا نذر طاعة الله أن يطيعه ؛ بل عليه كفارة يمين إذا لم يفعل عند أحمد وغيره ، وعند آخرين لا شيء عليه ، فلا يصير بالنذر ما ليس بطاعة ولا عبادة طاعة وعبادة .

العهود التي تؤخذ على الناس مخالفة للكتاب والسنَّة :

ونحو ذلك العهود التي تتخذ على الناس لالتزام طريقة شيخ معين كعهود أهل « الفتوة » ، و « رماة البندق » ، ونحو ذلك ، ليس على الرجل أن يلتزم من ذلك على وجه الدين والطاعة لله إلاَّ ما كان ديناً وطاعة لله ورسوله في شرع الله ؛

لكن قد يكون عليه كفارة عند الحنث في ذلك ؛ ولهذا أمرت غير واحد أن يعدل عما أخذ عليه من العهد بالتزام طريقة مرجوحة أو مشتملة على أنواع من البدع الى ما هو خير منها من طاعة الله ورسوله ﷺ ، واتباع الكتاب والسنّة ؛ إذ كان المسلمون متفقين على أنه لا يجوز لأحد أن يعتقد أو يقول عن عمل : إنّه قربة وطاعة وبر وطريق إلى الله واجب أو مستحب إلاّ أن يكون مما أمر الله به ورسوله ﷺ ؛ وذلك يعلم بالأدلة المنصوبة على ذلك ، وما علم باتفاق الأمّة أنّه ليس بواجب ولا مستحب ولا قربة لم يجز أن يعتقد أو يقال إنّه قربة وطاعة .

فكذلك هم متفقون على أنّه لا يجوز قصد التقرب به الى الله ، ولا التعبد به ولا اتخاذه ديناً ولا عمله من الحسنات ، فلا يجوز جعله من الدين لا باعتقاد وقول ، ولا بإرادة وعمل .

وبإهمال هذا الأصل غلط خلق كثير من العلماء يرون الشيء إذا لم يكن محرماً لا ينهى عنه ؛ بل يقال إنه جائز ، ولا يفرقون بين اتخاذه ديناً وطاعة وبراً ، وبين استعماله كما تستعمل المباحات المحضة ، ومعلوم أن اتخاذه ديناً بالاعتقاد أو الاقتصاد أو بهما أو بالقول أو بالعمل أو بهما من اعظم المحرمات وأكبر السيئات ، وهذا من البدع المنكرات التي هي أعظم من المعاصي التي يعلم أنها معاصي وسيئات .

نفاق ومداهنة :

فلما نهيتهم عن ذلك أظهروا الموافقة والطاعة ومضت على ذلك مدة والناس يذكرون عنهم الاصرار على الابتداع في الدين ، وإظهار ما يخالف شرعة المسلمين ، ويطلبون الايقاع بهم ، وأنا أسلك مسلك الرفق والأناة ، وانتظر الرجوع والفيئة ، وأؤخر الخطاب إلى أن يحضر (ذلك الشيخ) لمسجد الجامع . وكان قد كتب إليّ كتاباً بعد كتاب فيه احتجاج واعتذار ، وعتب وآثار ، وهو كلام باطل لا تقوم به حجة ، بل إمّا أحاديث موضوعة ، أو إسرائيليات غير مشروعة ، وحقيقة الأمر الصد عن سبيل الله وأكل أموال النّاس بالباطل .

شيخ الإسلام يطلب شيخهم للمناظرة :

فقلت لهم : الجواب يكون بالخطاب . فإن جواب مثل هذا الكتاب لا يتم إلاّ بذلك وحضر عندنا منهم شخص فنزعنا الغل من عنقه ، وهؤلاء هم من أهل الأهواء الذين يتعبدون في كثير من الأمور بأهوائهم لا بما أمر الله تعالى ورسولهﷺ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ﴾ (١) ؛ ولهذا غالب وجدهم هوى مطلق لا يدرون من يعبدون ، وفيهم شبه قوي من النصارى الذين قال الله تعالى فيهم : ﴿ يَٰٓأَهْلَ الْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ السَّبِيلِ ﴾ (٢) ؛ ولهذا كان السلف يسمون أهل البدع أهل الأهواء .

رفضهم للحجاج وإظهارهم الدجل والتهريج :

فحملهم هواهم على أن تجمعوا تجمع الأحزاب ، ودخلوا الى المسجد الجامع مستعدين للحراب ، بالأحوال التي يعدونها للغلاب . فلما قضيت صلاة الجمعة أرسلت إلى شيخهم لنخاطبه بأمر الله ورسولهﷺ ، ونتفق على اتباع سبيله ، فخرجوا من المسجد الجامع في جوعهم الى قصر الإمارة ، وكأنهم اتفقوا مع بعض الأكابر على مطلوبهم ، ثم رجعوا الى مسجد الشاغو ـ على ما ذكر لي ـ وهم من الصياح والاضطراب ، على أمر من أعجب العجاب . فأرسلت اليهم مرة ثانية لاقامة الحجة والمعذرة ، وطلباً للبيان والتبصرة ، ورجاء المنفعة والتذكرة . فعمدوا الى القصر مرة ثانية ، وذكر لي أنهم قدموا من الناحية الغربية مظهرين الضجيج والعجيج والازباد والارعاد ، واضطراب الرؤوس والأعضاء ، والتقلب في نهر بردى ، وإظهار التوله الذي يخيلون به على الورى ، وإبراز ما يدعونه من الحال والمحال ، الذي يسلمه اليهم من أضلوا من الجهال .

---

(١) سورة القصص : ٥٠

(٢) سورة المائدة : ٧٧

بين البطائحية والأمير

فلما رأى الأمير ذلك هاله ذلك المنظر . وسأل عنهم فقيل له : هم مشتكون ، فقال ليدخل بعضهم ، فدخل شيخهم ، وأظهر من الشكوى عليَّ ودعوى الاعتداء مني عليهم كلاماً كثيراً لم يبلغني جميعه ؛ لكن حدثني من كان حاضراً أنَّ الأمير قال لهم : فهذا الذي يقوله من عنده أو يقوله عن الله ورسوله ﷺ ؟ فقالوا : بل يقوله عن الله ورسوله ﷺ ، قال فأي شيء يقال له ؟ قالوا نحن لنا أحوال وطريق يسلم إلينا ، قال فنسمع كلامه فمن كان الحق معه نصرناه ، قالوا نريد أن تشدَّ منا ، قال : لا ، ولكن أشدُّ من الحقَّ سواء كان معكم أو معه ، قالوا : ولا بدَّ من حضوره ؟ قال . نعم ، فكرروا ذلك فأمر باخراجهم ، فأرسل إليَّ بعض خواصه من أهل الصدق والدين ممن يعرف ضلالهم وعرفني بصورة الحال ، وأنه يريد كشف أمر هؤلاء .

نصح شيخ الإسلام لهم :

فلما علمت ذلك القي في قلبي أن ذلك لأمر يريده الله من إظهار الدين ، وكشف حال أهل النفاق المبتدعين ، لانتشارهم في أقطار الأرضين ، وما أحببت البغي عليهم والعدوان ، ولا أن أسلك معهم إلاَّ أبلغ ما يمكن من الإحسان ، فأرسلت إليهم من عرفهم بصورة الحال ، وإني اذا حضرت كان ذلك عليكم من الوبال ، وكثر فيكم القيل والقال ، وإن من قعد أو قام قدام رماح أهل الإيمان ، فهو الذي أوقع نفسه في الهوان .

فاجتمعوا وأشار عليهم شيوخهم باظهار موافقة الشريعة ، والخروج عما ينكر عليهم من البدع ، وقال لهم شيخهم : أحوالنا تظهر عند التتار لا عند شرع محمد بن عبدالله ، ونزعوا الأغلال من الأعناق وأجابوا الى الوفاق .

الأمير يصر على كشف باطلهم :

ولكن الأمير أصر على عقد المناظرة لكشف باطلهم ، وألزمهم بالحضور .

شيخ الإسلام يستنصر ربّه :

قـال رحمـه الله : فاستخرت الله تعـالى تلك الليلـة واستعنتـه واستنصرتـه واستهديته ، وسلكت سبيل عباد الله في مثل هذه المسالك ، حتى ألقي في قلبي أن أدخل النّار عند الحاجة الى ذلك [1] ، وأنها تكون برداً وسلاماً على من اتبع ملـة الخليل ، وانها تحرق أشباه الصابئة أهل الخروج عن هذه السبيل . وقد كان بقايا الصابئة أعداء إبراهيم إمام الحنفاء بنواحي البطائح منضمين الى من يضاهيهم من نصارى الدهماء .

وبين الصابئة ومن ضلّ من العباد المنتسبين الى هذا الدين ، نسب يعرفه من عرف الحق المبين ، فالغـالية من القرامطـة والبـاطنية كالنصـيرية والإسماعيلية . يخرجون الى مشابهة الصابئة الفلاسفة ، ثم الى الإشراك ، ثم الى جحـود الحـق تعالى . ومن شركهم الغلو في البشر ، والابتـداع في العبـادات ، والخـروج عن الشريعة له نصيب من ذلك بحسب ما هو به لائق ، كالملحدين من أهل الاتحاد ، والغالية من أصناف العباد .

استثارتهم للناس وجمعهم الأعوان والأنصار

فلما أصبحنا ذهبت للميعاد ، وما أحببت أن استصحب أحداً للاسعاد ، لكن ذهب أيضاً بعض من كان حاضراً من الأصحاب ، والله هو المسبب لجميع الأسباب . وبلغني بعد ذلك أنهم طافوا على عدد من أكابر الأمراء ، وقالوا أنواعاً مما جرت به عادتهم من التلبيس والافتراء ، الذي استحـوذوا به على أكثـر أهـل الأرض من الأكابر والرؤساء ، مثل زعمهم أن لهم أحوالاً لا يقاومهم فيها أحد من الأولياء ، وأن لهم طريقاً لا يعرفهـا أحـد من العلماء . وأن شيخهـم هو في المشايخ كالخليفة ، وأنهم يتقدمون على الخلق بهذه الأخبـار المنيفـة ، وأن المنكر

---

(١) رحمه الله ما كان أسخاه بنفسه في سبيل إظهار دين الله وإعلاء كلمته .

عليهم هو آخذ بالشرع الظاهر ، غير واصل الى الحقائق والسرائر . وأن لهم طريقاً وله طريق . وهم الواصلون إلى كنه التحقيق ، وأشباه هذه الدعاوى ذات الزخرف والتزويق .

سبب انتشارهم في ديار الإسلام :

وكانوا لفرط انتشارهم في البلاد ، واستحواذهم على الملوك والأمراء والأجناد ، لخفاء نور الإسلام ، واستبدال أكثر الناس بالنور الظلام ، وطموس آثار الرسول في أكثر الأمصار ، ودروس حقيقة الإسلام في دولة التتار ، لهم في القلوب موقع هائل ، ولهم فيهم من الاعتقاد ما لا يزول بقول قائل .

أنصار الباطل :

قال المخبر : فغدا أولئك الأمراء الأكابر ، وخاطبوا فيهم نائب السلطان بتعظيم أمرهم الباهر ، وذكر لي أنواعاً من الخطاب ، والله تعالى أعلم بحقيقة الصواب ، والأمير مستشعر ظهور الحق عند التحقيق ، فأعاد الرسول الى مرة ثانية فبلغه أنَّا في الطريق . وكان كثير من أهل البدع الأضداد ، كطوائف من المتفقهة والمتفقرة وأتباع أهل الاتحاد . مجدين في نصرهم بحسب مقدورهم ، مجهزين لمن يعينهم في حضورهم . فلما حضرت وجدت النفوس في غاية الشوق إلى هذا الاجتماع ، متطلعين الى ما سيكون طالبين للإطلاع .

كذبهم على الشيخ وفضح الشيخ لهم وكشفه لباطلهم :

فلما وصل الشيخ ذكر له نائب السلطان وغيره أنهم قالوا : أن الشيخ طلبهم للامتحان ، وأن يحموا الأطواق ناراً ويلبسونها ، فأكذب ذلك وقال للأمير : نحن لا نستحل أن نأمر أحداً بأن يدخل ناراً ، ولا تجوز طاعة من يأمر بدخول النَّار . وفي ذلك الحديث الصحيح . وهؤلاء يكذبون في ذلك ، وهم كذابون مبتدعون

قد أفسدوا من أمر دين المسلمين ودنياهم ما الله به عليم . وذكرت تلبيسهم على طوائف من الأمراء ، وأنَّهم لبسوا على الأمير المعروف بالأيدمري . وعلى قفجق نائب السلطنة وعلى غيرهما ، وقد لبسوا أيضاً على الملك العادل كتغا في ملكه ، وفي حالة ولاية حماه ، وعلى أمير السلاح أجل أمير بديار مصر ، وضاق المجلس عن حكاية جميع تلبيسهم . فذكرت تلبيسهم على الأيدمري ، وأنَّهم كانوا يرسلون من النساء من يستخبر عن أحوال بيته الباطنة ، ثم يخبرونه بها على طريق المكاشفة ، ووعدوه بالملك ، وانهم وعدوه أن يروه رجال الغيب ، فصنعوا خشبا طوالا وجعلوا عليها من يمشي كهيئة الذي يلعب باكر الزجاج ، فجعلوا يمشون على جبل المزة ، وذاك يرى من بعيد قوما يطوفون على الجبل ، وهم يرتفعون عن الأرض ، وأخذوا منه مالا كثيرا ، ثم انكشف له أمرهم .

قلت للأمير ، وولده هو الذي في حلقة الجيش يعلم ذلك ، وهو ممن حدثني بهذه القصة . وأما قفجق فإنهم أدخلوا رجلاً في القبر يتكلم وأوهموه أن الموتى تتكلم ، وأتوا به في مقابر باب الصغير إلى رجل زعموا أنَّه الرجل الشعراني الذي بجبل لبنان ، ولم يقربوه منه ، بل من بعيد لتعود عليه بركته ، وقالوا : إنه طلب منه جملة من المال؛ فقال قفجق الشيخ يكاشف وهو يعلم أنَّ خزائني ليس فيها هذا كله ، وتقرب قفجق منه وجذب الشعر فانقلع الجلد الذي ألصقوه على جلده من جلد الماعز ، فذكرت للأمير هذا ؛ ولهذا قيل لي إنه لما انقضى المجلس وانكشف حالهم للناس كتب أصحاب قفجق إليه كتاباً وهو نائب السلطنة بحماه يخبره بصورة ما جرى .

وذكرت للأمير أنهم مبتدعون بأنواع من البدع مثل الأغلال ونحوها وأنَّا نهيناهم عن البدع الخارجة عن الشريعة ، فذكر الأمير حديث البدعة وسألني عنه ، فذكرت حديث العرباض بن سارية ، وحديث جابر بن عبدالله ، وقد ذكرتها بعد ذلك بالمجلس العام كما سأذكره .

الشيخ مستعدٌ لدخول النار لكشف باطلهم :

قلت للأمير : أنا ما امتحنت هؤلاء ، لكن هم يزعمون أنّ لهم أحوالاً يدخلون بها النَّار ، وأنّ أهل الشريعة لا يقدرون على ذلك . ويقولون لنا هذه الأحوال التي يعجز عنها أهل الشرع ليس لهم أن يعترضوا علينا ، بل يسلم إلينا ما نحن عليه ـ سواء وافق الشرع أو خالفه ـ وأنا قد استخرت الله سبحانه أنهم إن دخلوا النار أدخل أنا وهم ومن احترق منا ومنهم فعليه لعنة الله ، وكان مغلوباً ، وذلك بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار .

حيلة دخول النار :

فقال الأمير ولمَ ذاك ؟ قلت : لأنهم يطلون جسومهم بأدوية يصنعونها من دهن الضفادع ، وباطن قشر النارنج ، وحجر الطلق وغير ذلك من الحيل المعروفة لهم ، وأنا لا أطلي جلدي بشيء ، فإذا اغتسلت أنا وهم بالخل والماء الحار بطلت الحيلة وظهر الحق ، فاستعظم الأمير هجومي على النار ، وقال أتفعل ذلك ؟ فقلت له : نعم ! قد استخرت الله في ذلك وألقى في قلبي أن أفعله ، ونحن لا نرى هذا وأمثاله ابتداء ؛ فإنّ خوارق العادات إنما تكون لأمّة محمدﷺ المتبعين له باطناً وظاهراً لحجة أو حاجة ، فالحجة لاقامة دين الله ، والحاجة لما لا بد منه من النصر والرزق الذي به يقوم دين الله ، هؤلاء إذا أظهروا ما يسمونه إشاراتهم وبراهينهم التي يزعمون أنها تبطل دين الله وشرعه وجب علينا أن ننصر الله ورسولهﷺ ونقوم في نصر دين الله وشريعته بما نقدر عليه من أرواحنا وجسومنا وأموالنا . فلنا حينئذ أن نعارض ما يظهرونه من هذه المخاريق بما يؤ يدنا الله به من الآيات .

وليعلم أن هذا مثل معارضة موسى للسحرة لما أظهروا سحرهم أيَّد الله موسى بالعصا التي ابتلعت سحرهم . فجعل الأمير يخاطب من حضره من الأمراء على السماط بذلك ، وفرح بذلك ، وكأنهم كانوا قد أوهموه أنّ هؤلاء لهم حال لا يقدر أحد على رده . وسمعته يخاطب الأمير الكبير الذي قدم من مصر الحاج بهادر

وأنا جالس بينهما على رأس السماط بالتركي ما فهمته منه إلاّ انه قال اليوم ترى حرباً عظيماً ، ولعل ذاك كان جواباً لمن كان خاطبه فيهم على ما قيل .

الأمير يصر على البيان

وحضر شيوخهم الأكابر فجعلوا يطلبون من الأمير الاصلاح وإطفاء هذه القضية ويترفقون ، فقال الأمير : إنما يكون الصلح بعد ظهور الحق ، وقمنا الى مقعد الأمير بزاوية القصر أنا وهو وبها در فسمعته يذكر له أيوب الحمال بمصر والمولهين ونحو ذلك ، فدل ذلك على أنه كان عند هذا الأمير لهم صورة معظمة ، وأن لهم فيهم ظناً حسناً والله أعلم بحقيقة الحال ؛ فإنه ذكر لي .

وكان الأمير أحب أن يشهد بهادر هذه الواقعة ليتبين له الحق فإنه من أكابر الأمراء وأقدمهم وأعظمهم حرمة عنده ، وقد قدم الآن وهو يحب تأليفه وإكرامه ، فأمر ببساط يبسط في الميدان . وقد قدم البطائحية وهم جماعة كثيرون ، وقد أظهروا أحوالهم الشيطانية من الازباد والارغاء وحركة الرؤوس والأعضاء ، والطفر والحبو والتقلب ، ونحو ذلك من الأصوات المنكرات ، والحركات الخارجة عن العادات ، المخالفة لما أمر به لقمان لابنه في قوله ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾[1].

فلما جلسنا وقد حضر خلق عظيم من الأمراء والكتّاب والعلماء والفقراء والعامة وغيرهم ، وحضر شيخهم الأول المشتكي ، وشيخ آخر يسمي نفسه خليفة سيده أحمد ، ويركب بعلمين ، وهم يسمونه : عبد الله الكذاب ، ولم أكن أعرف ذلك . وكان من مدة قد قدم علي منهم شيخ بصورة لطيفة ، وأظهر ما جرت به عادتهم من المسألة فأعطيته طلبته ولم أتفطن لكذبه ، حتى فارقني ، فبقي في نفسي أنّ هذا خفي على تلبيسه إلى أن غاب ، وما يكاد يخفي علي تلبيس أحد ، بل أدركه في أول الأمر فبقي ذلك في نفسي ، ولم أره قط إلى حين ناظرته ، ذكر لي أنّه ذاك الذي كان اجتمع بي قديماً ، فتعجبت من حسن صنع الله أنه هتكه في أعظم مشهد

(١) سورة لقمان : ١٩

يكون حيث كتم تلبيسه بيني وبينه .

فلما حضروا تكلم منهم شيخ يقال له حاتم بكلام مضمونه طلب الصلح والعفو عن الماضي والتوبة ، وأنا مجيبون الى ما طلب من ترك هذه الأغلال وغيرها من البدع ، ومتبعون للشريعة فقلت : أما التوبة فمقبولة . قال الله تعالى : ﴿ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوۡبِ شَدِيدِ ٱلۡعِقَابِ ﴾ (١) هذه الى جنب هذه . وقال تعالى : ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ (٢) .

رد الشيخ عليهم في بدعة لبس أطواق الحديد :

فأخذ شيخهم المشتكي ينتصر للبسهم الأطواق وذكر أن وهب بن منبه روى أنه كان في بني إسرائيل عابد وأنه جعل في عنقه طوقاً في حكاية من حكايات بني إسرائيل لا تثبت .

فقلت لهم : ليس لنا أن نتعبد في ديننا بشيء من الإسرائيليات المخالفة لشرعنا ، قد روى الإمام أحمد في مسنده عن جابر بن عبد الله ان النبيﷺ رأى بيد عمر بن الخطاب ورقة من التوراة فقال : « أمتهوكون يا ابن الخطاب؟ لقد جئتكم بها بيضاء نقية ، لو كان موسى حياً ، ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم » وفي مراسيل أبي داود أن النبيﷺ رأى مع بعض أصحابه شيئاً من كتب أهل الكتاب فقال : « كفى بقوم ضلالة أن يتبعوا كتاباً غير كتابهم أنزل إلى نبي غير نبيهم » ، وأنزل الله تعالى : ﴿ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ﴾ .

فنحن لا يجوز لنا اتباع موسى ولا عيسى فيما علمنا أنه أنزل عليهما من عند الله إذا خالف شرعنا ، وإنما علينا أن نتبع ما أنزل علينا من ربنا ، ونتبع الشرعة

---

(١) سورة غافر ٣
(٢) سورة الحجر ٤٩ - ٥٠
(٣) سورة العنكبوت ٥١

والمنهاج الذي بعث الله به الينا رسولنا . كما قال تعالى ﴿فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ (١) . فكيف يجوز لنا أن نتبع عباد بني إسرائيل في حكاية لا تعلم صحتها ؟! وما علينا من عباد بني إسرائيل ؟! ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (٢) هات ما في القرآن وما في الأحاديث الصحاح كالبخاري ومسلم وذكرت هذا وشبهه بكيفية قوية .

لا يجوز الخروج على الشريعة بحال :

فقال هذا الشيخ منهم يخاطب الأمير : نحن نريد أن تجمع لنا القضاة الأربعة والفقهاء ونحن قوم شافعية .

فقلت له : هذا غير مستحب ولا مشروع عند أحد من علماء المسلمين ؛ بل كلهم ينهى عن التعبد به ويعدّه بدعة ، وهذا الشيخ كمال الدين بن الزملكاني مفتي الشافعية ، ودعوته ، وقلت يا كمال الدين ! ما تقول في هذا؟ فقال : هذا بدعة غير مستحبة ، بل مكروهة ، أو كما قال . وكان مع بعض الجماعة فتوى فيها خطوط طائفة من العلماء بذلك .

وقلت ليس لأحد الخروج عن شريعة محمدﷺ ولا الخروج عن كتاب الله وسنَّة رسولﷺ ، وأشك هل تكلمت هنا في قصة موسى والخضر فإنِّي تكلمت بكلام بعد عهدي به .

الباطن والظاهر محكوم بالكتاب والسنَّة :

فانتدب ذلك الشيخ « عبدالله » ورفع صوته . وقال : نحن لنا أحوال وأمور باطنة لا يوقف عليها ، وذكر كلاماً لم أضبط لفظه : مثل المجالس والمدارس

(١) سورة المائدة : ٤٨

(٢) سورة البقرة : ١٤١

والباطن والظاهر ؛ ومضمونه أنّ لنا الباطن ولغيرنا الظاهر ، وأن لنا أمراً لا يقف عليه أهل الظاهر فلا ينكرونه علينا .

فقلت له ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ : الباطن والظاهر والمجالس والمدارس ، والشريعة والحقائق ، كل هذا مردود الى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ؛ ليس لأحد الخروج عن كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ ، لا من المشايخ والفقراء ، ولا من الملوك والأمراء ، ولا من العلماء والقضاة وغيرهم ؛ بل جميع الخلق عليهم طاعة الله ورسوله ﷺ . وذكرت هذا ونحوه .

إدعاء الخوارق :

فقال ـ ورفع صوته ـ : نحن لنا الأحوال وكذا وكذا . وادعى الأحوال الخارقة كالنار وغيرها ، واختصاصهم بها ، وانهم يستحقون تسليم الحال إليهم لأجلها .

فقلت ـ ورفعت صوتي وغضبت ـ : أنا أخاطب كلّ أحمدي من مشرق الأرض الى مغربها اي شيء فعلوه في النار فأنا أصنع مثل ما تصنعون ، ومن احترق فهو مغلوب ، وربما قلت فعليه لعنة الله ؛ ولكن بعد أن نغسل جسومنا بالخل والماء الحار ؛ فسألني الأمراء والناس عن ذلك ؟ فقلت : لأن لهم حيلاً في الاتصال بالنار يصنعونها من أشياء : من دهن الضفادع . و قشر النارنج . وحجر الطلق . فضج الناس بذلك ، فأخذ يظهر القدرة على ذلك ويقول : أنا وأنت نلف في بارية بعد أن تطلى جسومنا بالكبريت . (فقلت فقم ؛ وأخذت أكرر عليه في القيام الى ذلك ، فمد يده يظهر خلع القميص فقلت لا ! حتى تغتسل في الماء الحار والخل ، فأظهر الوهم على عادتهم فقال من كان يحب الأمير فليحضر خشباً أو قال حزمة حطب . فقلت هذا تطويل وتفريق للمجمع ؛ ولا يحصل به مقصود بل قنديل يوقد وأدخل أصبعي وأصبعك فيه بعد الغسل ؛ ومن احترقت أصبعه فعليه لعنة الله ؛ أو قلت : فهو مغلوب . فلما قلت ذلك تغير وذل . وذكر لي أن وجهه اصفرّ .

الخوارق ليست دليل الصلاح والتقى :

ثم قلت لهم : ومع هذا فلو دخلتم النار وخرجتم منها سالمين حقيقة ، ولو طرتم في الهواء ؛ ومشيتم على الماء ؛ ولو فعلتم ما فعلتم لم يكن في ذلك ما يدل على صحة ما تدعونه من مخالفة الشرع . ولا على إبطال الشرع ؛ فإنَّ الدجال الأكبر يقول للسماء أمطري فتمطر ؛ وللأرض أنبتي فتنبت ، وللخربة أخرجي كنوزك فتخرج كنوزها تتبعه ؛ ويقتل رجلاً ثم يمشي بين شقيه ، ثم يقول له : قم فيقوم ، ومع هذا فهو دجال كذاب ملعون ، لعنه الله ، ورفعت صوتي بذلك فكان لذلك وقع عظيم في القلوب .

وذكرت قول أبي يزيد البسطامي : لو رأيتم الرجل يطير في الهواء ، ويمشي على الماء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف وقوفه عند الأوامر والنواهي ، وذكرت عن يونس بن عبد الأعلى أنَّه قال للشافعي : أتدري ما قال صاحبنا يعني الليث بن سعد ؟ قال لو رأيت صاحب هوى يمشي على الماء فلا تغتر به . فقال الشافعي : لقد قصر الليث لو رأيت صاحب هوى يطير في الهواء فلا تغتر به ؛ وتكلمت في هذا ونحوه بكلام بعد عهدي به . ومشايخهم الكبار يتضرعون عند الأمير في طلب الصلح ، وجعلت ألح عليه في إظهار ما ادعوه من النار مرة بعد مرة ، وهم لا يجيبون ، وقد اجتمع عامة مشايخهم الذين في البلد والفقراء المولهون منهم ، وهم عدد كثير ، والناس يضجون في الميدان ، ويتكلمون بأشياء لا اضبطها .

وقع الحق وبطل ما كانوا يعملون :

فذكر بعض الحاضرين أنَّ النَّاس قالوا ما مضمونه : ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَـٰغِرِينَ﴾ وذكروا أيضاً أنَّ هذا الشيخ يسمى عبدالله الكذاب . وأنَّه الذي قصدك مرة فأعطيته ثلاثين درهماً ، فقلت : ظهر لي حين أخذ الدراهم وذهب أنه ملبس ، وكان قد حكى حكاية عن نفسه مضمونها أنَّه أدخل النَّار في لحيته قدام صاحب حماة ، ولما فارقني وقع في قلبي أنَّ

لحيته مدهونة . وأنّه دخل الى الروم واستحوذ عليهم .

فلما ظهر للحاضرين عجزهم وكذبهم وتلبيسهم ، وتبين للأمراء الذين كانوا يشدون منهم أنهم مبطلون رجعوا » وتخاطب الحاج بهادر ونائب السلطان وغيرهما بصورة الحال ، وعرفوا حقيقة المحال ؛ وقمنا الى داخل ودخلنا ، وقد طلبوا التوبة عما مضى .

المطلوب من أمثال هؤلاء :

وسألني الأمير عما تطلب منهم فقلت : متابعة الكتاب والسنَّة مثل ان لا يعتقد أنه لا يجب عليه اتباعهما ، أو أنه يسوغ لأحد الخروج من حكمهما ونحو ذلك ، أو أنه يجوز اتباع طريقة تخالف بعض حكمهما ، ونحو ذلك من وجوه الخروج عن الكتاب والسنَّة التي توجب الكفر . وقد توجب القتل دون الكفر ، وقد توجب قتال الطائفة الممتنعة دون قتل الواحد المقدور عليه .

فقالوا نحن ملتزمون الكتاب والسنَّة اتنكر علينا غير الأطواق ؟ نحن نخلعها . فقلت : الأطواق وغير الأطواق ، ليس المقصود شيئاً معيناً ، وإنما المقصود أن يكون جميع المسلمين تحت طاعة الله ورسوله ﷺ . فقال الأمير فأي شيء الذي يلزمهم من الكتاب والسنَّة ؟ فقلت : حكم الكتاب والسنَّة كثير لا يمكن ذكره في هذا المجلس ، لكن المقصود أن يلتزموا هذا التزاماً عاماً ، ومن خرج عنه ضربت عنقه ـ وكرر ذلك وأشار بيده الى ناحية الميدان ـ وكان المقصود أن يكون هذا حكماً عاماً في حق جميع الناس ؛ فان هذا مشهد عام مشهور قد توفرت الهمم عليه ، فيتقرر عند المقاتلة ، وأهل الديوان ، والعلماء والعباد ، وهؤلاء وولاة الأمور ـ انه من خرج عن الكتاب والسنَّة ضربت عنقه .

قلت : ومن ذلك الصلوات الخمس في مواقيتها كما أمر الله ورسوله ؛ فإن من هؤلاء من لا يصلي ، ومنهم من يتكلم في صلاته ، حتى إنهم بالأمس بعد أن اشتكوا علي في عصر الجمعة جعل أحدهم يقول في صلب الصلاة يا سيدي أحمد

شيء لله . وهذا مع أنه مبطل للصلاة فهو شرك بالله ودعاء لغيره في حال مناجاته التي أمرنا أن نقول فيها : ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ، وهذا قد فعل بالأمس بحضرة شيخهم ، فأمر قائل ذلك لما أنكر عليه المسلمون بالاستغفار على عادتهم في صغير الذنوب . ولم يأمره باعادة الصلاة ، وكذلك يصيحون في الصلاة صياحاً عظيماً وهذا منكر يبطل الصلاة .

الفرق بين الصياح والعطاس في الصلاة :

فقال : هذا يغلب على أحدهم كما يغلب العطاس .

فقلت : العطاس من الله ، والله يحب العطاس ، ويكره التثاؤب ، ولا يملك أحدهم دفعه ، وأما هذا الصياح فهو من الشيطان ، وهو باختيارهم وتكلفهم ، ويقدرون على دفعه ، ولقد حدثني بعض الخبيرين بهم بعد المجلس أنهم يفعلون في الصلاة ما لا تفعله اليهود والنصارى : مثل قول أحدهم : أنا على بطن امرأة الإمام ، وقول الآخر كذا وكذا من الإمام، ونحو ذلك من الأقوال الخبيثة ، وأنهم إذا أنكر عليهم المنكر ترك الصلاة يصلون بالنوبة ، وأنا أعلم أنهم متولون للشياطين ليسوا في الصلاة أو غيرها .

احتجاجهم بالقدر :

فلما أظهروا التزام الكتاب والسنَّة وجوعهم بالميدان بأصواتهم وحركاتهم الشيطانية يظهرون أحوالهم قلت له أهذا موافق للكتاب والسنَّة ؟ فقال : هذا من الله حال يرد عليهم ، فقلت : هذا من الشيطان الرجيم لم يأمر الله به ، ولا رسوله ﷺ، ولا أحبه ولا رسول الله ﷺ، فقال: ما في السموات والأرض حركة ولا كذا ولا كذا إلا بمشيئته وإرادته ، فقلت له : هذا من باب القضاء والقدر ، وهكذا كل ما في العالم من كفر وفسوق وعصيان هو بمشيئته وإرادته ، وليس ذلك بحجة لأحد في فعله ؛ بل ذلك مما زينه الشيطان وسخطه الرحمن .

استخدام القوة إن لم تنفع الحجة :

فقال : فبأي شيء تبطل هذه الأحوال . فقلت : بهذه السياط الشرعية . فاعجب الأمير وضحك ، وقال : أي والله ! بالسياط الشرعية ، تبطل هذه الأحوال الشيطانية ، كما قد جرى مثل ذلك لغير واحد ، ومن لم يجب الى الدين بالسياط الشرعية فبالسيوف المحمدية . وأمسكت سيف الأمير وقلت : هذا نائب رسول الله ﷺ وغلامه ، وهذا السيف سيف رسول الله ﷺ ، فمن خرج عن كتاب الله وسنّة رسوله ضربناه بسيف الله ، وأعاد الأمير هذا الكلام .

لا يقرُّ أحد على إظهار المنكر في ديار الإسلام :

وأخذ بعضهم يقول : فاليهود والنصارى يقرون ولا نقر نحن ؟ . فقلت : اليهود والنصارى يقرون بالجزية على دينهم المكتوم في دورهم ، والمبتدع لا يقر على بدعته . فافحموا بذلك .

و « حقيقة الأمر » أن من أظهر منكراً في دار الإسلام لم يقر على ذلك ، فمن دعا إلى بدعة وأظهرها لم يقر ، ولا يقر من أظهر الفجور ، وكذلك أهل الذمة لا يقرون على إظهار منكرات دينهم ، ومن سواهم فإن كان مسلماً أخذ بواجبات الإسلام وترك محرماته ، وإن لم يكن مسلماً ولا ذمياً فهو إما مرتد وإما مشرك وإما زنديق ظاهر الزندقة .

ذم المبتدعة

وذكرت ذم « المبتدعة » فقلت : روى مسلم في صحيحه عن جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه أبي جعفر الباقر ، عن جابر بن عبدالله أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته « إنَّ أصدق الكلام كلام الله ، وخير الهدي هدي محمد ، وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة » . وفي السنن عن العرباض بن سارية ، قال : خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ذرفت منها العيون ، ووجلت منها القلوب ،

فقال قائل يا رسول الله كأن هذه موعظة مودع فماذا تعهد إلينا ؟ فقال : « أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتي وسنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ؛ فإنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة » وفي رواية « وكل ضلالة في النار » .

البدعة شر من الزنا والمعاصي

فقال لي : البدعة مثل الزنا ، وروى حديثاً في ذم الزنا ، فقلت : هذا حديث موضوع على رسول الله ﷺ ، والزنا معصية ، والبدعة شر من المعصية ، كما قال سفيان الثوري : البدعة أحب إلى إبليس من المعصية : فإنَّ المعصية يتاب منها ، والبدعة لا يتاب منها . وكان قد قال بعضهم : نحن نتوب الناس ، فقلت: من ماذا تتوبونهم ؟ قال : من قطع الطريق ، والسرقة، ونحو ذلك. فقلت : حالهم قبل تتويبكم خير من حالهم بعد تتويبكم ؛ فإنهم كانوا فساقاً يعتقدون تحريم ما هم عليه » ويرجون رحمة الله ، ويتوبون إليه ، أو ينوون التوبة » فجعلتموهم بتتويبكم ضالين مشركين خارجين عن شريعة الإسلام ، يحبون ما يبغضه الله ويبغضون ما يحبه الله ، وبينت أنَّ هذه البدع التي هم وغيرهم عليها شر من المعاصي .

قلت مخاطباً للأمير والحاضرين : أما المعاصي فمثل ما روى البخاري في صحيحه عن عمر بن الخطاب أن رجلاً كان يدعى حماراً ، وكان يشرب الخمر ، وكان يضحك النبيﷺ ، وكان كلما أتى به النبيﷺ جلده الحد فلعنه رجل مرة . وقال لعنه الله ، ما أكثر ما يؤتى به الى النبيﷺ ؟! فقال النبيﷺ : « لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله» . قلت : فهذا رجل كثير الشرب للخمر ، ومع هذا فلما كان صحيح الاعتقاد يحب الله ورسوله شهد له النبيﷺ بذلك ونهى عن لعنه .

وأما المبتدع فمثل ما أخرجا في الصحيحين عن علي بن أبي طالب وعن أبي

سعيد الخدري وغيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أن النبي ﷺ كان يقسم « فجاءه رجل ناتىء الجبين كث اللحية ، محلوق الرأس » بين عينيه أثر السجود ، وقال ما قال . فقال النبي ﷺ : « يخرج من ضضئي هذا قوم يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم ، وصيامه مع صيامهم ، وقراءته مع قراءتهم ، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم ، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية ؛ لئن أدركتم لاقتلنهم قتل عاد » وفي رواية : « لو يعلم الذين يقاتلونهم ماذا لهم على لسان محمد لنكلوا عن العمل » ، وفي رواية : « شر قتلي تحت أديم السماء ، خير قتلى من قتلوه » .

قلت : فهؤلاء مع كثرة صلاتهم وصيامهم وقراءتهم وما هم عليه من العبادة والزهادة أمر النبي ﷺ بقتلهم ، وقتلهم علي بن أبي طالب ومن معه من أصحاب النبي ﷺ وذلك لخروجهم عن سنّة النبي وشريعته ، وأظن أني ذكرت قول الشافعي : لأن يبتلى العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خير من أن يبتلى بشيء من هذه الأهواء . فلما ظهر قبح البدع في الإسلام ، وأنها أظلم من الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وأنهم مبتدعون بدعاً منكرة فيكون حالهم أسوأ من حال الزاني والسارق وشارب الخمر أخذ شيخهم عبدالله يقول : يا مولانا لا تتعرض لهذا الجناب العزيز ـ يعني اتباع أحمد بن الرفاعي ـ فقلت منكراً بكلام غليظ : ويحك ؛ أي شيء هو الجناب العزيز ، وجناب من خالفه أولى بالعز يا ذو الزرجنة تريدون أن تبطلوا دين الله ورسوله ، فقال : يا مولانا يحرقك الفقراء بقلوبهم ، فقلت : مثل ما أحرقني الرافضة لما قصدت الصعود إليهم وصار جميع الناس يخوفوني منهم ومن شرهم ، ويقول أصحابهم : إن لهم سراً مع الله فنصر الله وأعان عليهم . وكان الأمراء الحاضرون قد عرفوا بركة ما يسره الله في أمر غزو الرافضة بالجبل .

أكذب الطوائف حتى قيل فيهم : لا تقولوا أكذب من اليهود على الله ، ولكن قولوا أكذب من الأحمدية على شيخهم ، وقلت لهم : أنا كافر بكم وبأحوالكم ﴿ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ (١) .

ولما رددت عليهم الأحاديث المكذوبة أخذوا يطلبون مني كتباً صحيحة ليهتدوا بها فبذلت لهم ذلك ، وأعيد الكلام أنه من خرج عن الكتاب والسنَّة ضربت عنقه ، وأعاد الأمير هذا الكلام واستقر الكلام على ذلك . والحمد لله الذي صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

وقلت لهم : يا شبه الرافضة يا بيت الكذب ، فان فيهم من الغلو والشرك والمروق عن الشريعة ما شاركوا به الرافضة في بعض صفاتهم ، وفيهم من الكذب ما قد يقاربون به الرافضة في ذلك ، أو يساوونهم ، أو يزيدون عليهم .

---

(١) سورة هود : ٥٥

الشوكاني والرافضة

العلامة محمد بن علي الشوكاني المولود سنة ١١٧٣ هـ والمتوفى سنة ١٢٥٠ هـ امام مجتهد ، له باع طويل في علوم الاجتهاد ، وقد قضى عمره في التأليف والتدريس والدعوة .

وهذا الصنف من العلماء الذين يسلكون هذا السبيل يبتلون ويختبرون ، وتلك سنّة الله في عباده الذين سلكوا سبيله ، ﴿ الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾[1] وقد حدثنا الشوكاني ـ رحمه الله ـ في كتابه « أدب الطلب »[2] عن بعض ما أصابه بسبب اشتغاله بعلوم الاجتهاد ، ونبذه التقليد والتعصب المقيت ، فقد حسده علماء عصره ، وثار ضده المتعصبون الجهلة ، واستعدوا عليه السلطان ، وزينوا له سجنه وسفك دمه ، ولكنه ثبت ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فأيده الله ونصره ، وأذل من أراد به شرا ، ونحن ننقل اليك بعض ما ذكره من تلك الوقائع .

قال الشوكاني : « ولقد اشتدّ بلاهم ، وتفاقمت محنتهم في بعض الواقعات ، فقاموا قومة شيطانية ، وصالوا صولة جاهلية ، وذلك انه ورد إليّ سؤال في شأن ما يقع من كثير من المقصرّين من الذم لجماعة من الصحابة ، صانهم الله ، وغضب على من ينتهك أعراضهم المصونة ، فأجبت برسالة[3] ذكرت فيها ما

---

(١) سورة العنكبوت : ١

(٢) ص ٣٠

(٣) هي رسالته المسماة ارشاد الغبي الى مذهب اهل البيت في صحب النبي مخطوطة .

كان عليه أئمة الزيدية من أهل البيت ، وغيرهم ، ونقلت اجماعهم من طرق ، وذكر كلمات قالها جماعة من أكابر الأئمة ، وظننت أن نقل اجماع أهل العلم يرفع عنهم العماية ، ويردّهم عن طرق الغواية ، فقاموا بأجمعهم ، وحرروا جوابات زيادة على عشرين رسالة [1] ، مشتملة على الشتم والمعارضة بما لا ينفق إلاّ على بهيمة ، واشتغلوا بتحرير ذلك وأشاعوه بين العامة ، ولم يجدوا عند الخاصة إلاّ الموافقة ، تقية لشرهم ، وفراراً من معرتهم ، وزاد الشر وتفاقم حتى أبلغوا ذلك الى أرباب الدولة والمخالطين للملوك من الوزراء وغيرهم ، وأبلغوه الى مقام خليفة العصر [2] حفظه الله ، وعظم القضية عليه جماعة ممن يتصل به ، فمنهم من يشير عليه بحبسي ، ومنهم من ينصح له بإخراجي من مواطني ، وهو ساكت لا يلتفت الى شيء من ذلك ، وقاية من الله وحماية لأهل العلم ، ومدافعة عن القائمين بالحجة في عباده ، ولم تكن لي إذ ذاك مداخلة لأحد من أرباب الدولة ، ولا اتصال بهم ، واشتد لهج الناس بهذه القضية ، وجعلوها حديثهم في مجامعهم ، وكان مَنْ بيني وبينهم مودّة يشيرون عليّ بالفرار أو الاستتار ، وأجمع رأيهم على أني إذا لم أساعدهم على أحد الأمرين فلا أعود الى مجالس التدريس التي كنت أدرّس بها في جامع صنعاء ، فنظرت ما عند تلامذتي ، فوجدت أنفسهم قوية ، ورغبتهم في التدريس شديدة إلاّ القليل منهم ، فقد كادوا يستترون من الخوف ، ويفرون من الفزع ، فلم أجد لي رخصةً في البعد عن مجالس التدريس ، وعدت ، وكان أول درس عاودته عند وصولي إلى الجامع في أصول الفقه بين العشائين ، فانقلب من بالجامع ، وتركوا ما هم فيه من الدرس والتدريس ، ووقفوا ينظرون إليّ متعجبين من الإقدام على ذلك لما قد قرر عندهم من عظم الأمر وكثرة التهويل والوعيد والترهيب ، حتى ظنوا أنه لا يمكن البقاء في صنعاء فضلاً عن المعاودة للتدريس ، ثم وصل وأنا في حال ذلك الدرس جماعة لم تجرِ لهم عادة بالوصول الى الجامع ، وهم متلفعون بثيابهم لا يعرفون ، وكانوا ينظرون إليّ ويقفون قليلاً ثم يذهبون ،

(١) جمعت في كتاب بعنوان إظهار الخبي وانظر كتاب مصادر الفكر الاسلامي ص ١٤١ .

(٢) هو المنصور علي بن العباس المتوفى سنة ١٢٢٤ .

ويأتي آخرون ، حتى لم يبق شك مع أحد أنها إن لم تحصل منهم فتنة في الحال وقعت مع خروجي من الجامع ، فخرجت من الجامع وهم واقفون على مواضع من طريقي ، فما سمعت من أحدهم كلمة فضلاً عن غير ذلك ، وعاودت الدروس كلها ، وتكاثر الطلبة المتميزون زيادة على ما كانوا عليه في كل فن ، وقد كانوا ظنوا أنه لا يستطيع أحد أن يقف بين يدي مخافةً على أنفسهم من الدولة والعامة ، فكان الأمر على خلاف ما ظنه وكنت أتعجب من ذلك وأقول في نفسي هذا من صنع الله الحسن ولطفه الخفي ، لأن من كان الحامل له على ما وقع الحسد والمنافسة لم ينجح كيده بل كان الأمر على خلاف ما يريد .

ومن عجيب ما أشرحه لك أنه كان في درس بالجامع بعد صلاة العشاء الآخرة في صحيح البخاري يحضره من أهل العلم الذين مقصدهم الرواية وإثبات السماع جماعة ، ويحضره من عامة الناس جمع جمٌّ لقصد الاستفادة بالحضور ، فسمع ذلك وزير رافضي من وزراء الدولة ، وكانت له صولة وقبول كلمة بحيث لا يخالفه أحد ، وله تعلق بأمر الأجناد ، فحمله ذلك على أن استدعى رجلاً من المساعدين له في مذهبه ، فنصب له كرسياً في مسجد من مساجد صنعاء ، ثم كان يسرج له الشمع الكثير في ذلك المسجد ، حتى يصير عجباً من العجب ، فتسامع به الناس ، وقصدوا إليه من كل جانب لقصد الفرجة والنظر الى ما لا عهد به ، والرجل الذي على الكرسي يملي عليهم في كل وقت ما يتضمن الثلب لجماعة من الصحابة صانهم الله ، ثم لم يكتفِ ذلك الوزير بذلك حتى أغرى جماعة من الأجناد من العبيد وغيرهم بالوصول إليّ لقصد الفتنة ، فوصلوا وصلاة العشاء الآخرة قائمة ، ودخلوا الجامع على هيئة منكرة ، وشاهدتهم عند وصولهم ، فلما فرغت الصلاة قال لي جماعة من معارفي إنه يحسن ترك الإملاء تلك الليلة في البخاري ، فلم تطب نفسي بذلك ، واستعنت بالله ، وتوكلت عليه ، وقعدت في المكان المعتاد ، وقد حضر بعض التلاميذ وبعضهم لم يحضر تلك الليلة لما شاهد وصول أولئك الأجناد ، ولما عقدت الدرس وأخذت في الإملاء رأيت أولئك

يدورون حول الحلقة من جانب الى جانب ، ويقعقعون بالسلاح ، ويضربون سلاح بعضهم في بعض ، ثم ذهبوا ولم يقع شيء بمعونة الله تعالى وفضله ووقايته . ثم أن ذلك الوزير أكثر السعاية الى المقام الإمامي هو ومن يوافقه على هواه ويطابقه في اعتقاده من أعوان الدولة ، واستعانوا برسائل بعضها من علماء السوء ، وبعضها من جماعة من المقصرين الذين يظنهم من لا خبرة له في عداد أهل العلم .

وحاصل ما في تلك الرسائل أنى قد أردت تبديل مذهب أهل البيت عليهم السلام ، وإنه إذا لم يتدارك ذلك الخليفة بطل مذهب آبائه ، ونحو هذا من العبارات المفتراة والكلمات الخشنة والأكاذيب الملفقة .

ولقد وقفت على رسالة منها لبعض أهل العلم ممن جمعني وإياه طلب العلم ونظمنا جميعاً عقد المودة وسابق الإلفة ، فرأيته يقول فيها مخاطباً لإمام العصر ان الذي ينبغي له ، ويجب عليه ، أن يأمر جماعة يكبسون منزلي ، ويهجمون مسكني ، ويأخذون ما فيه من الكتب المتضمنة لما يوجب العقوبة من الاجتهادات المخالفة للمذهب ، فلما وقفت على ذلك قضيت منه العجب ، ولولا أن تلك الرسالة بخطه المعروف لديّ لما صدقت ، وفيها من هذا الزور والبهت والكلمات الفظيعة شيء كثير ، وهي في نحو ثلاثة كراريس . وعند تحرير هذه الأحرف قد انتقم الله منه ، فشرده أمام العصر الى جزيرة من جزائر البحر مقروناً في السلاسل بجماعة من السوقة وأهل الحرف الدنيئة ، وأهلكه الله في تلك الجزيرة ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [1] ، وكان حدوث هذه الحادثة عليه ونزول هذه الفاقرة به بمرأى ومسمع من ذلك الوزير الرافضي الذي ألّف له تلك الرسالة استجلاباً لما عنده وطلباً للقرب إليه وتودّداً له . ومن جملة ما وقفت عليه من الرسائل المؤلفة بعناية هذا الوزير رسالة الى بعض مشائخي الذين أخذت عنهم بعض العلوم الإلهية ، وفيها من الزور ومحض الكذب ما لايظن بمن هو دونه وما حمله على ذلك إلاّ الطمع في الوزير ، فعاقبه الله بقطع ما كان يجري عليه من الخليفة ، وأصيب بفقر مدقع ،

(١) سورة الكهف : ٤٩

وفاقة شديدة ، حتى صار عبرة من العير ، وكان يفدُ إليّ يشكو حاله وما هو فيه من الجهد والبلاء فأبلغ جهدي في منفعته وما يسدُّ فاقته ، وهكذا جماعة من المترسلين على المبالغين في إنزال الضرر بي أرجعهم الله إليّ راغمين ، وأحوجهم لمعونتي مضطرين ، ولم أعاقب أحداً بما أسلفه ولا كافيته بما قدمه . »

وقد ذكر بعض ما جرى في هذه المحنة في موضع آخر من كتابه « أدب الطلب »[(1)] فقال :

ومن[(2)] أقرب حوادث الرفض في ديارنا هذه أنه كان جماعة من المتظهرين بالعلم يملون على الناس في جامع صنعاء في شهر رمضان سنة ست وعشرة ومائتين بعد الألف في كتب فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وكانوا نحو ثلاثة أو أربعة ، كل واحد منهم قد اجتمع عليه جماعة كثيرة من العامة ، وكان أحدهم يملي على كرسّي مرتفع ، وتسرج حوله الشمع الكثير ، فيجتمع من الناس عدد كثير جداً لقصد الفرجة ، كما يتفق في مثل هذا ، وكانوا يشوبون المناقب بذكر مثالب بعضُ الصحابة ، ويحطون من بعضهم ، ويصرحون بسب البعض ، ويتوجعون من البعض ، وكان ما يصدر من هؤلاء من هذه الأمور إنما هو مطابقة للوزير الرافضي الذي قدمت لك ذكره ، ولاسيما صاحب الكرسي ، وهذا الوزير لم يكن رفضه لوازع ديني ، كما يتفق لكثير من أهل الجهل المتعلقين بالرفض ، فهو أنذل من ذاك وأقل ، ولكنه يفعل ذلك مساعدة لجماعة من شياطين المتفقهة المتعصبة ، يدخلون إليه فيقولون : إنه لم يبقَ من يحامي على هذا الأمر سواك ، وانك ركن التشيع ، وملجأ أهله ، ونحو هذه العبارات ، فيبالغ في التظهر بهذه الخصلة ، ويحب نسبة ذلك إليه ، فكان الرفض مكملاً لمثالبه ، متمماً لمعايبه ، لأنه في كل باب من أبواب القبائح قريع دهره ، ونسيج وحده ، فلما تكاثر ما يصدر من أولئك المشتغلين بما لا يعنيهم من ثلب السلف مع ما ينضم إلى ذلك من إدخال

---

(1) ص ٧٤

(2) هذه الحادثة اشار اليها المؤلف في البدر الطالع .

الضغائن في قلوب العامة وإيهامهم أن الناس قد تركوا مذهب أهل البيت ، وفعلوا وفعلوا . وكل ذلك كذب ، فإن الناس هم في هذه الديار زيدية ، وكثير منهم يجاوز ذلك فيصير رافضياً جلداً ، ولم يكن في هذه الديار على خلاف ذلك إلاّ الشاذ النادر ، وهم أكابر العلماء ، ومن يقتدي بهم ، فإنهم يعملون بمقتضى الدليل ، ولا ينتمون إلى مذهب ، ولا يتعصبون لأحد ، فهؤلاء هم الذين يقصدهم أولئك الرافضة بكل فاقرة ، ويرمونهم بالحجر والمدر ، ويسمونهم بميسم النصب . فلما تفاقم شر أولئك المدرسين ، وصار الجامع ملعباً لا متعبّداً ، واشتغل بأصواتهم المصلون عن صلاتهم ، والذاكرون عن ذكرهم رجح إمام العصر [1] أعزّ الله به الدين منع صاحب الكرسي من الإملاء في الجامع ، وأمره بالعود الى المسجد الذي كان يملي فيه .

فحضر أولئك المستمعون على عادتهم وكان الإملاء قبل صلاة العشاء ، فلما لم يحضر شيخهم ذهب بعضهم ليجيء به من بيته ، فأخبرهم أن الإمام قد منعه ، وأمره بالعود الى حيث كان ، فلم يعذروه ، ولا سمعوا منه ، ورجعوا الى الجامع ، ثم ثاروا ثورة شيطانية ، وقاموا قومة طاغوتية ، فمنعوا من الصلاة في الجامع ، وما زال ينضم إليهم كل رافضي ، ومن له رغبة في إثارة الفتنة ، حتى صاروا جمعاً كثيراً ، ثم خرجوا ، فقصدوا بيت المؤذن الذي أظهر عليهم الرأي الإمامي فرجموه ، حتى كادوا يهدمونه ، وفيه نساء وأطفال قد صاروا في أمر مريع ، هذا وليس لذلك المؤذن المسكين سعي ، ولا له قدرة على شيء ، ولكنه أرسل بالرأي الإمامي والي الأوقاف إليه ، ووالي الوقف أيضاً ليس له سعي في ذلك ولكنه أرسله إليه بعض من يتصل بالمقام الإمامي ، ثم لما فرغوا من رجم بيت المؤذن ذهبوا ولهم صراخ عظيم وأصوات شديدة إلى بيت والي الأوقاف ، وهو رجل من أهل العلم من آل رسول الله ﷺ ، فرجموا بيته رجماً شديداً ، حتى غشي على بعض من فيه من الشرائف ، فقال لهم قائل: إن هؤلاء الشرائف المرجومات هن بنات نبيكم وبنات

(١) هو الإمام المنصور علي بن العباس السابق ذكره .

علي بن أبي طالب ، ولم يكنّ بنات معاوية ولا بنات عمرو بن العاص وغيرهما ممن تعادونهم فما لكم ولهن ، فلم يلتفتوا إلى ذلك ، واستمرّوا على الرجم ثم دخلوا الى بعض البيت ونهبوا بعض متاعه ، وبلغهم أن والي الأوقاف وولده بمسجد قريب من بيته ، فحاصوا حيصة حُمُر الوحش ، وصرخوا صرخة الحُمُر الأهلية ، وذهبوا الى ذلك المسجد عازمين على قتله ، فأغلق عليه بعض الناس مقصورة المسجد ، فسلم .

ثم ذهبوا بصراخهم وجلبتهم الى بيت بعض أهل العلم من أهل البيت النبوي ، وكان يعظ الناس بالجامع ، ويتظهر ببعض من السنَّة ، فرجموا بيته رجماً شديداً ، وفيه شرائف وأطفال . ثم ثاروا الى بيت بعض وزراء الخليفة لا لذنب إلاّ لكونه ينافسه ذلك الوزير الرافضي ، وكونه ينتسب الىٰ بعض بطون قريش ، فرجموه رجماً شديداً ثم كسروا بعض أبوابه ودخلوا وكادوا يتصلون بمن فيه لولا أنه حماهُ جماعة بالرمي بالبنادق وآخرون بالسلاح ، ويتصل ببيت هذا الوزير المرجوم بيت وزير آخر من أهل العلم فرجموه ورجمهم من في بيت الوزير حتى أصابوا جماعة منهم فتركوه ، وسبب رجمهم لبيت الوزير هذا انه من جملة من يتظهَّر بعلم السنَّة ، ثم لما كاد ينقضي الليل فارقوا ما هم فيه وقد أثاروا فتنة عظيمة ، ومحنة شديدة ولما كان النهار جمع الخليفة أعوانه ، وطلبني واستشارني ، فأشرت عليه بأن يحبس أولئك المدرسين الذين أثاروا الفتنة في الجامع بسبب ما يصدر منهم من نكاية القلوب وإثارة العوام ، فحبسهم ، ثم أشرت عليه بأنه يأمر بتتبع اولئك الذين رجموا البيوت ، وفعلوا تلك الأفاعيل ومن وجدوه حبسوه ، ويأمر بتتبع جماعة من شياطين الفقهاء المثيرين للفتنة ، ففعل وحبسوا جميعاً ، ولكن لم ينصح والي مدينة صنعاء لموافقته للوزير الرافضي في الرفض ومهابته له ووقوفه عندما يختاره ويرتضيه ، وبعد أن اجتمع في الحبس جماعة كثيرة من هؤلاء أرسل الإمام حفظه الله لجماعة من شياطينهم المباشرين للفتنة من الفقهاء ، فجيء بهم من الحبس إليه ، وضربهم بالعصي تحت داره وهو ينظر ، ثم أرسل في اليوم الآخر لجماعة من أهل السوق المباشرين للفتنة فصنع بهم ما صنع بأولئك ، ثم جعل جماعة من

شياطين الجميع في سلاسل وأرسل بهم الى جزائر البحر على هيئة منكرة فسكنت الفتنة سكوناً تاماً .

ولقد شاهدت من التعصبات في هذه الفتنة ما بهرني من الخاصة والعامة ، أما الخاصة فإني رأيت من أهل بيت الخلافة من أولاد الإمام وغيرهم ومن الوزراء والأمراء والقضاة وأهل العلم من ذلك ما يعجب منه ، فإني لما أشرت على الخليفة بما أشرت خرجت من المكان الذي هو مستقر فيه الى حجرته ، وفيها أكابر أولاده ، وهم إذ ذاك أمراء الأجناد ، وعندهم جميع الوزراء وهم جميعاً في أمر مريع ، فيهم من يعظم عليه حبس أولئك المدرسين ويراه حطاً في مرتبة الرفض ، ونقصاً من الرافضة ، وقد فتل منهم ذلك الوزير الرافضي في الذروة والغارب ، وأوهمهم أنها ستثور فتنة من العامة والأجناد ، وما زال بعض أولاد الخليفة يردّد عليّ ذلك ويرغبني في الرجوع عن الشور الذي أشرت به على الخليفة ، ويذكر ما قد ألقاه إليه الوزير الرافضي من خشية ثورة الأجناد والعامة ، فما زلت أعرفه بالصواب ، وأذكر له أن هذه الفتنة لو لم تحسم يومنا هذا بحبس المثيرين لها لهلك غالب الناس في الليلة الواصلة ، ونهبوا الأموال جهاراً ، وأنه سيصل الأمر الى الخليفة وأولاده فضلاً عن غيرهم ، وعرّفته أنه ما سيثور بسبب ذلك أجناد ولا غيرهم ، فإن هذا تسكين للفتنة لا إثارة لها ، ولقد حمدوا هذه المشورة بعد حين وعرفوا أنها صواب ، وأن بها كان سكون تلك الفتنة التي غلت مراجلها ، وكادت تعم جميع أهل صنعاء ثم تسري بعد ذلك الى سائر الديار اليمنية .

طرائف

شيخ المعهد يضرب الأستاذ

كان شيخ المعهد مغيظاً محنقاً على أولئك الطلبة الذين يصلون متأخرين عن الموعد المحدد لبدء الدوام المدرسي اليومي ، وقد بلغ به الغيظ في ذلك اليوم حدّاً جعله يأمر باغلاق أبواب المعهد إلاّ الباب الرئيس ، ووقف فضيلته بقامته المديدة وساعده المفتول وعصاه الغليظة في الباب فكاد أن يغلقه ، وأخذ يلقن كل متأخر درساً سيجعله يفكر طويلاً قبل أن يتأخر مرة أخرى ، لقد كان ينهال على المتأخر بلسانه توبيخاً وتأنيباً ، وبعصاه يداعب بها جنب الطالب وهو مقبل ، وظهره عندما يولي مدبراً الى داخل المعهد .

وتعجب شيخ المعهد أشدَّ العجب من ذلك المقبل متمهلاً ، لا تبدو عليه آثار الخوف ، ولا يأبه للسان الشيخ ولا عصاه ، كأنّه أستاذ وليس تلميذاً ، فعزم الشيخ على أن يعلّمه درساً يناسب كبرياءه وذنبه ، ولذلك فما كاد صاحبنا يصل الى عتبة الباب حتى انهال عليه الشيخ ضرباً موجعاً ، وسباباً مقذعاً ، وتوقف القادم مشدوهاً مأخوذاً ، وإذ بالشيخ ينتهره آمراً إياه بالجري الى فصله ، وإذا به يسمع من هذا المضروب المهان ما جعل لسانه يقف عن السباب ، ويده تكف عن الضرب يا شيخ أنا أستاذ ولست طالباً ، نعم أستاذ في هذا المعهد .

كان صاحبنا مدرساً جديداً حلَّ في المعهد في تلك السنة ، ولم يكن شيخ المعهد قد تعرف اليه ، وقد كان ذلك الأستاذ فتى غض الإهاب ، لا يبدو عليه أنّه جاوز مرحلة التلمذة ، حتى أن الناظر إليه يجزم أنّه لا يزال تلميذاً .

لم يكن أمام صاحبنا من سبيل إلاَّ أن يتقبل اعتذار شيخ المعهد ، وصبر أياماً على تندر الأساتذة والطلبة بقصته ، ولكنه أصبح اثيراً عند الشيخ ، فقد كان دائماً يحاول أن يكرمه كي يكفر عن ذلك الأذى وتلك الاهانة التي ألحقها به .

فصل الشياطين

اتجه المدرس الى حصته مهموماً ، وقد كان هذا حاله كلما توجه الى فصل الشياطين كما كان يسميه ، فلقد عانى من هؤلاء الأشقياء الأمرين ، وفي كل حصة يجد فنوناً من الشيطنة والعفرتة ينقدح عنها فكر هؤلاء ، ومع أنهم متخلفون دراسياً ، إلاَّ أنهم في مجال ايذاء المدرسين عباقرة ، يتفتق ذهنهم في كل يوم عن جديد .

دخل المدرس الفصل ولمح بمجرد دخوله على ملامح وجوه التلاميذ وفي نظرات عيونهم شيئاً ، ولم يطل به التفكير طويلاً ليدرك المكر الجديد الذي ابتكره هؤلاء الشياطين، فقد أحس حرقاناً شديداً في عينيه ، فأسالت دموعه على خديه ، وارتفعت أصوات الضحك تعبر عن السرور لنجاح الخطة التي دبروها بإحكام كي يقف المدرس الجاد أمامهم باكيا ، وماذا يملك غير البكاء وقد تصاعدت الروائح لتلك المادة الحارقة من أرجاء الغرفة موجعة عينية مسيلة لدموعهما .

وجاء ناظر المدرسة وأقبل المشرف ، ولم يجد المدرس صعوبة في التعرف على المجرم الأول الذي خطط للجريمة ونفذها ، وقد عثر معه بعد تفتيشه على الدليل الذي يدينه ، لقد عثر في طيات ثيابه على القارورة التي استخدمها في جريمته ، فلم يستطع إنكاراً ، ولم يجد مناصاً من الاعتراف ، ونكس رأسه وبدا الوجوم على وجوه الشياطين ، الذين كانوا قبل دقائق ضاحكين مسرورين ، وأصرَّ الأستاذ على أن يجعل الطالب عبرة لمن اعتبر ، وأن يطرد من المدرسة ، وحرم على الطالب أن يدخل قاعة الفصل وامتد ذلك أياماً عدة . ولكن الأستاذ مهما بلغ غضبه فإنَّه يبقى

مع ذلك بمثابة الأب لأبنائه ؛ ولذا فإنّه لم يتمالك بعد مدة من الزمان إلاّ أن يقبل رجاء تلميذه ، ويصفح عن فعلته النكراء ، وعرف أولئك الشياطين هذا الفضل فخفضوا الجناح ، وأحسنوا الأدب بقية العام ، ونشأت بينهم وبين المدرس بعد ذلك علاقات حسنة دامت بعد كبرهم وتخرجهم .

كيف تخلص الشيخ من المأزق

الفصل فصل الصيف ، والحرّ شديد يكتم الأنفاس ، والفصل الذي يجلس فيه صاحبنا لا يعدُّ فصلاً بالمعنى الذي يعرفه الناس ، ضيق في المكان ، وسوء في التهوية ، وصاحبنا مجبب معمم ، والجبّة والعمّة تعطي حرّاً فوق حرارة الجو ، فما كان من الشيخ وقد أحاط به الحرّ الشديد إلاّ أن خلع جبته وعمته ، وترك الكرسي وجلس بجانب النافذة يتلقى النسمات التي تهبُّ بين الفينة والفينة ، وقد أقنع نفسه بأنّ مثل هذا اليوم لا ينبغي أن يثقل فيه على نفسه أو تلامذته ، فالعلم لا يُفْهم في مثل هذه الأحوال ، وأفاق الشيخ من تأملاته وسبحاته على وقع أقدام تقترب من باب الفصل ، إنّه يعرف صاحب هذه الخطوات ، إنه ناظر المدرسة ، صاحب اللسان الصليط ، والقلم الذي لا يرحم في التقارير .

لم يكن هناك وقت كافٍ كي يأخذ الشيخ وضعه الرسمي في الفصل ، فلبس الجبّة والعمة والانطلاق في الشرح تحتاج الى وقت ، فما كان من الشيخ إلاّ أن اتجه الى القبلة متخذاً وضع الجالس في التشهد في الصلاة ، ودخل الناظر مجيلاً نظره في الغرفة ، ثمّ وقع نظره على الشيخ وهو يقول السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله ، وعقب قائلاً : هكذا تكون الصلاة يا أبنائي ، وخرج الناظر مسروراً ، فالدروس العملية أجدى من الدروس النظرية .

ربّ ضارة نافعة

رجع الأستاذ الى بيته متأخراً كعادته بعد أن أطال السهر مع أصحابه ، وفي

هذه المرة نفذت زوجته تهديدها فأبت أن تفتح له الباب ، وكانت قد أعلمته أنّه إن عاد متأخراً كما هو شأنه فلن تفتح له باب المنزل .

أين يذهب ؟ خرج يمشي وساقته قدماه الى المدرسة ، فما كان منه إلا أن ضرب الباب ، وفتح له الحارس ، ولم يجد صعوبة في الدخول ، فالمدرس في مثل هذه القرى له مقام كبير ، والفراش والحارس يعظمونه جداً .

حاول في البداية أن ينام ولكن النوم أبى أن يقترب منه ، فوجدها فرصة ثمينة أن يشغل الوقت بتصحيح الكراسات التي تراكمت حتى ملأت الرف ، وبذلك يتخلص من أمر اشتد غضب الناظر عليه منه . وحين طلع النهار كان صاحبنا قد أنهى تصويب كراساته جميعاً .

وقبل أن يحضر مدرس أو تلميذ دخل المدرسة ضيف ، وقاده الحارس الى صاحبنا إذ لم يكن في المدرسة غيره ، وأحسن المدرس وفادته ، فقد صنع له الشاي ، وآنسه بالحديث ، وتأخر الناظر عن الحضور ، وتأخر بعض المدرسين ، فاستشاط الضيف غضباً ، لقد كان مرسلاً من الوزارة للتحقيق في شأن المدرس الذي كثرت شكوى الناظر من تأخره ، وعدم قيامه بالواجبات المناطة به ، وقد كان المشتكى منه ذلك المدرس الذي نام في المدرسة يصحح الكراسات .

حضر الناظر فوجد مبعوث الوزارة يرغي ويزبد ، وعندما بدأ التحقيق علم المحق أنّ ذلك الأستاذ الذي حضر الى المدرسة أول النّاس هو المشتكى منه ، وطلب منه كراساته فإذا هي في أحسن حال ، لقد تحوّل الحال ، فقد كان التقرير المرفوع مرضياً للمدرس أشدّ الرضا ، بمقدار ما كان مؤلماً للناظر أشدّ الإيلام ، ولله في خلقه شؤ ون .

دهاة العرب

وهب الله بعض الناس قدرة على التخلص في المواقف الصعبة ، فمن هؤلاء

المغيرة بن شعبة ، استعمله عمر بن الخطاب على البحرين ، فكرهه أهلها فعزله عمر ، فخافوا أن يرده عليهم ، فقال دهقانهم : إن فعلتم ما آمركم به لم يرده علينا ، قالوا ، مرنا بأمرك ، قال : تجمعون مائة ألف درهم ، حتى أذهب بها الى عمر ، وأقول إنَّ المغيرة اختان هذا ودفعه إليَّ ، فدعا عمر المغيرة ، فقال : ما يقول هذا ؟ قال : كذب ، أصلحك الله ، إنَّما كانت مائتي ألف ، فقال ما حملك على ذلك ، قال : العيال والحاجة ، فقال عمر للدهقان : ما تقول ؟ فقال : لا والله ، لأصدقنك ، والله ما دفع إليَّ قليلاً ولا كثيراً ، ولكن كرهناه ، وخشينا أن ترده علينا ، فقال عمر للمغيرة : ما حملك على هذا ؟ قال : إنَّ الخبيث كذب عليَّ ، فأردت أن أخزيه [1] .

وعمرو بن العاص كان من دهاة العرب ، ومن دهائه أنه لما حاصر غزَّة ، بعث اليه صاحبها أن أرسل إليَّ رجلاً من أصحابك أكلمه ، ففكر عمرو بن العاص ، وقال : ما لهذا غيري ، فخرج عليه حتى دخل عليه ، فكلمه كلاماً لم يسمع مثله قط ، فقال له : حدثني ، هل أحد من أصحابك مثلك ، فقال : لا تسل ، من هو اني عندهم بعثوني اليك ، وعرَّضوني لما عرضوني ، ولا يدرون ما يصنع بي ، فأمر له بجارية وكسوة ، وبعث الى البواب إذا مرَّ بك فاضرب عنقه ، وخذ ما معه ، فمرَّ برجل من نصارى غسَّان فعرفه ، فقال يا عمرو كما قد أحسنت الدخول فأحسن الخروج ، فرجع ، فقال له الملك : ما ردَّك الينا ؟ قال : نظرت فيما أعطيتني فلم أجد ذلك يسع من معي من بني عمّي ، فأردت الخروج ، فآتيك بعشرة منهم تعطيهم هذه العطية ، فيكون معروفك عند عشرة رجال خيراً من أن يكون عند واحد ، قال : صدقت عجّل بهم ، وبعث إلى البواب : خلِّ سبيله ، فخرج عمرو وهو يتلفت ، حتى إذا أمن قال : لا عدت لمثلها ، فلما كان بعد رآه الملك ، فقال أنت هو؟ قال : نعم ، على ما كان من غَدرك [2] .

(١) السياسة الشرعية لابن القيم : ص ٣٧

(٢) المصدر السابق : ص ٣٨

نباهة القضاة

مهمّة القاضي أن يحكم بالعدل ليعيد الحق الى مستحقه ، وبعض الناس ـ كما أخبر القرآن ـ يأكلون الأموال بالباطل ويدلون بها الى الحكام ليأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وهم يعلمون ، وقد وهب الله بعض القضاة نباهة وفطنة يكشفون بها ألاعيب الخصوم ، ومن هؤلاء القاضي إياس ، فقد عرف عنه في هذا الشيء الكثير .

فمن ذلك أنّ رجلاً استودع رجلاً مالاً ثم رجع فطلبه فجحده ، فأتى إياساً فأخبره ، فقال له إياس : انصرف فاكتم أمرك ، ولا تعلمه أنك أتيتني ، ثمّ عد إليّ بعد يومين ، فدعا إياس المودَع ، فقال : قد حضر مال كثير ، وأريد أن أسلمه إليك ، أفحصين منزلك ؟ قال نعم ، قال : فأعدّ له موضعاً وحمالين ، وعاد الرجل إلى إياس . فقال : انطلق الى صاحبك فاطلب المال . فإن أعطاك فذاك ، وإن جحدك فقل له : إنّي أخبر القاضي . فأتى الرجل صاحبه فقال : ما لي ، وإلاّ أتيت القاضي ، وشكوت إليه ، وأخبرته بأمري ، فدفع اليه ماله ، فرجع إلى إياس فقال : قد أعطاني المال . وجاء الأمين إلى إياس لموعده ، فزجره وانتهره . وقال : لا تقربني يا خائن [1] .

واستودع رجل لغيره مالاً ، فجحده ، فرفعه الى إياس ، فسأله فأنكر ، فقال للمدعي : أين دفعت إليه ، فقال : في مكان في البريّة ، فقال وما كان هناك ؟ قال شجرة ، اذهب إليها ، فلعلك دفنت المال عندها ونسيت ، فتذكر إذا رأيت الشجرة ، فمضى ، وقال للخصم ، اجلس حتى يرجع صاحبك . وإياس يقضي وينظر إليه ساعة بعد ساعة ، ثمّ قال : يا هذا ، أترى صاحبك قد بلغ مكان الشجرة ؟ قال : لا ، قال : يا عدوّ الله ، إنّك خائن ، قال : أقلني قال : لا أقالك الله ، وأمر أن يحتفظ به حتى جاء الرجل ، فقال له إياس : اذهب

معه فخذ حقك (١)

وجاءه مرة رجلان يختصمان في قطيفتين : احداهما حمراء والأخرى خضراء ، فقال أحدهما : دخلت الحوض لأغتسل ووضعت قطيفتي ، ثمّ جاء هذا ، فوضع قطيفته تحت قطيفتي ، ثمّ دخل فاغتسل فخرج قبلي ، وأخذ قطيفتي فمضى بها ، ثمّ خرجت فتبعته ، فزعم أنها قطيفته ، فقال : ألك بينة ؟ قال : لا ، قال أئتوني بمشط ، فأتي بمشط ، فسرح رأس هذا ، ورأس هذا ، فخرج من رأس أحدهما صوف أحمر ومن رأس الآخر صوف أخضر ، فقضى بالحمراء للذي خرج من رأسه الصوف الأحمر ، وبالخضراء للذي خرج من رأسه الصوف الأخضر (٢) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) المصدر السابق ص ٣٢

الفهرس

تمهيد ٧

عبر وعظات

تقلب الدنيا بأهلها ١١

لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم ١٥

قبر كثيرا ممن حفروا له قبره ١٧

المنبوذ ١٩

فأين دعار طيء ٢١

ميراث صلاح الدين الأيوبي ٢٣

لا ينجي حذر من قدر ٢٥

السجن خير له من الحكم ٢٧

نسيت ان تتزوج ٢٩

قيم اسلامية

زهرة الدنيا بين التنافس فيها والاعراض عنها ٣٣

الكلأ أهون علي من الذهب ٣٧

ساد قومه وهو احنف أعور ٣٩

نجاة ابن سينا والنجاة الحقيقية ٤١

رقابة الله هي الضمان ضد الطغيان ٤٣

في الدعوة

ثمامة بن أثال سيد أهل اليمامة ٥١
لماذا خرت كنائس فارس ٥٣
أثر رحمة المسلمين بأعدائهم ٥٥
الانشاد بين التحريم والاباحة ٥٧

أثر العقيدة الفاسدة والهوى الجامح

الذين يسعون الى الهلاك والدمار ٦١
ضن الخبيث بملكه ٦٧
دليل صحتها تناقضها ٦٩
كيف ضل حمدان قرمط ٧١
الخبر الذي حل سجل السخطة ٧٥
قتلت أمها وأباها ٧٩
تمعر وجهه عندما سمع تحية الاسلام ٨١
من الذي تسبب في موت الطفل ٨٣
الامبراطور بوكاسا ٨٥
يبيحون تجارة الجنس ويحرمون الزواج ٨٧
اربعة مليارات تنفق على الأموات ٨٩
اربعة ملايين للبحث عن قاتل ٩١
امرأة تخاصم ربها ٩٥
أثر الخرافة في حياة الناس ٩٧

اعداء الاسلام ومخططاتهم

الى الله نشكو اهل الممالك من اهل ملتنا ١٠٣
اليهود والزعماء يستغنون الأحلام والرؤى ١٠٧

امريكي يمتطي ظهر مسلم ١١٥
كيف اكل لحم الكلب ١١٩
مخطط لابادة دعاة الاسلام ١٢١
مخطط لحرب الاسلام ١٢٩
مخطط شيوعي لحرب الاسلام ١٣٣
ماذا فعلت امريكا بوصية فرانكلين ١٣٩
وسقطت الشعارات المزيفة ١٤١
مواقف مؤثرة
بكى النبي صلى الله عليه وسلم مما صنع حصين ١٤٥
اقسم على ربك يا براء ١٤٨
ما أنا بالذي اختار عليه احدا ١٤٩
ليس هذا كلام مجنون ١٥١
ان عجزت عن شيء فاستعن بمولاي ١٥٣
شرح تحفته وزوجه ابنته ١٥٥
يطعن في علي ويبكي على الحجاج ١٥٧
لو فهمتها لألفيت لها في قلبك كلوما ١٥٩

محاورات
عمر بن الخطاب يحاور اليهود ١٦٣
ابن عباس يحاور الخوارج ١٦٧
عمر بن عبد العزيز يحاور الخوارج ١٧١
شيخ شامي يحاور المعتزلة ١٧٥
ابن العربي يحاور الباطنية ١٧٩
شيخ الاسلام ابن تيمية يحاور دجاجلة البطائحية ١٨٣
الشوكاني والرافضة ٢٠٥

طرائف

شيخ المعهد يضرب الاستاذ ٢١٤
فصل الشياطين ٢١٥
كيف تخلص الشيخ من المأزق ٢١٦
رب ضارة نافعة ٢١٦
دهاة العرب ٢١٧
نباهة القضاة ٢١٩